ومن الأدلّة كذلك على أنّ الحديث هنا متعلّقٌ بتهيئة الأرض للنّاس تعيين الآية الكريمة الهداية غايةً لجعل النّجوم متوهّجة معلّقةً فى السّماء بقدرة الله تعالى الكبير المتعال . جاء فى سورة النّحل[1] قوله تعالى : ﴿ وألقى فى الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارًا وسبلاً لعلّكم تهتدون . وعلاماتٍ وبالنّجم هم يهتدون ﴾ .

وتنصّ الآية على الظّلمات فى البرّ والبحر : ﴿ لتهتدوا بها فى ظلمات البرّ والبحر ﴾ وإنّ فى ذكر الظّلمات والاهتداء بالنجوم ليلاً فى البرّ والبحر ذكرًا ضمنيًّا للاهتداء بالشّمس فى المقام الأوّل نهارًا . ويصحّ الاهتداء بالقمر ليلاً ولكنّ القمر متحرّك ، وقد قدّره الله تعالى منازل فى السّماء ، وفى حال إمكان رؤية القمر لصفاء السّماء إمكان رؤية النّجوم ، وهي فى مجال الاهتداء ، تتقدّم القمر بسبب توهّجها من ناحية ، وبسبب كثرتها من ناحيةٍ أخرى . والمعروف أنّه لا يكاد يأفل نجمٌ حتّى يظهر فى الأفق نجمٌ آخر ، والمعروف أنّ المواضع النّسبيّة للنّجوم ثابتة . ونحن حينما نعلم أنّ النّجوم قد جعلها الله تعالى رجومًا للشّياطين وزينة وللاهتداء بها ، نستطيع أن نتبيّن أنّ الاهتداء بالنّجوم يعنى وصول الإنسان إلى مرحلةٍ كبيرةٍ من النّضج والوعي بقيمة الزّمن والإدراك لمصالحه .

إنّ الإنسان الآن يجوب أرض الله تعالى الواسعة ليلاً ونهارًا ، ويركب ثبج البحر ليلاً ونهارًا . وإذا كان الإنسان يستطيع بفضل الله تعالى أن يحدّد اتّجاهه نهارًا مستعينًا بآية الزّمان أعنى الشّمس فى المقام الأوّل ، وبآية المكان أعنى البيئة وما جعل الله تعالى فى الأرض من علامات فى المقام الأوّل ، فما العمل حينما يقبل اللّيل ويخيّم الظّلام . هنا يبدو بإرادة الله تعالى دور النّجوم التّى تبدو ليلاً وتختفى بسبب شدّة ضوء الشّمس نهارًا . وتبدو الحاجة الملحّة للنّجوم ليلاً حينما تختفى السّماء وراء السّحب .

وتقدّم الآية الكريمة البرّ فى الذّكر على البحر . لأنّ علاقة الإنسان بالبرّ هي الأقوى وهي الأكبر . ومن ألطف ما يمكن أن يستدلّ به على شدّة علاقة الإنسان

---

(١) الآية ١٥ ، ١٦ .

بالبرّ بالقياس إلى علاقته بالبحر كثرة الألفاظ العربيّة المتعلّقة بالبرّ وقلّة الألفاظ المتعلّقة بالبحر . ومن ألطف ما يصحّ أن يستأنس به فى هذا الشّأن أنّه أمكن جمع أكثر من ٥٦٤٤ خمسة آلاف وستّمائة وأربعة وأربعين لفظًا لشئون الجمل فى اللّغة العربيّة[١].

ولـمّا كان الاهتداء بالنّجوم فى ظلمات البرّ والبحر يقتضى العلم فقد نبّهت الآية الكريمة فى التّذييل إلى هذه الحقيقة وقررت أنّ الّذين يستفيدون من تفصيل الله تعالى الآيات هم القوم الّذين يعلمون وليس الجهّال الّذين لا يعلمون : ﴿ قد فصّلنا الآيات لقومٍ يعلمون ﴾ ولمّا كان بلوغ الإنسان درجة الاهتداء بالنّجوم فى ظلمات البرّ والبحر يعنى بلوغه مرحلة النّضج والرّشد والأَشُدّ ، فكأنّ هذا الإنسان أصبح أهلاً لأن ينبّه إلى ذاته كي يتدبّرها فينتهي إلى الشّكر لله تعالى وذلك بإفراده جلّ وعلا بالعبادة فى المقام الأوّل . وهذه هي الآية الكريمة الّتى تتحدّث عن الإنسان فإلى .

الآيـــة رقـــم (٩٨)

قال تعالى : ﴿ وهو الّذى أنشأكم من نفسٍ واحدةٍ فمستقرٌّ ومستودع قد فصّلنا الآيات لقومٍ يفقهون ﴾ .

خلق الله سبحانه وتعالى آدم عليه السّلام من طين . فلا أب ولا أمّ لآدم عليه السّلام . وخلق الله سبحانه وتعالى زوجه حوّاء عليها السّلام من ضِلَعِهِ عليه السّلام. وكأنّ حوّاء عليها السّلام خُلِقت من ذكرٍ وهو آدم عليه السّلام ولا أنثى . وخلق الله سبحانه وتعالى عيسى ابن مريم عليه السّلام من أمّه مريم عليها السّلام . فعيسى عليه السّلام خُلِقَ من أنثى ولا ذكر . وخلق الله سبحانه وتعالى سائر الخلق من ذكرٍ وأنثى . جاء فى سورة النّساء[٢] قوله تعالى : ﴿ يا أيّها النّاس اتّقوا ربّكم

---

(١) دراسات فى فقه اللّغة د . صبحى الصّالح ٣٣٩ دمشق ١٣٧٩ هـ . ١٩٦٠ م .

(٢) الآية ١ .

الّذى خلقكم من نفسٍ واحدةٍ وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيرًا ونساءً . واتّقوا الله الّذى تساء لون به والأرحام . إنّ الله كان عليكم رقيبا ﴾ إنّ كلّ البشر الموجودين على سطح الكرة الأرضية هم من ذرّيّة آدم وحوّاء عليهما السّلام . وقد جعل الله سبحانه وتعالى أرحام النّساء مستقرّاً للنّطفة وللولد . وجعل الله سبحانه وتعالى ظهور الرّجال مستودعًا للنّطفة وللذّرّيّة . إنّ هذا المعنى لكلٍّ من المستقرّ والمستودع هو رأي جمهور العلماء[1] وبناءً على ذلك يكون ثمّة تحوّلٌ من النّفس الواحدة وهي آدم عليه السّلام إلى المستقرّ بمعنى أرحام النّساء فعودةٌ إلى المستودع بمعنى أصلاب الرّجال . لقد شاء الله تعالى لآدم عليه السّلام أن يكون مهيّئًا للإنجاب ، وأن تكون زوجه حوّاء عليها السّلام مهيّئةً للإنجاب كذلك . إنّ عدم صلاح أحدهما للإنجاب معناه انقطاع النّسل . وشاء الله تعالى لذرّيّة آدم عليه السّلام أن تكون سلسلتها موصولة الحلقات إلى يوم الدّين . وربّما كان بعض الرّجال عقيمين وبعض النّساء عاقرات ولكنّ كلّ ذلك استثناء ولا يؤثّر فى القاعدة أو الأصل إلى قيام السّاعة . وإنّ هذه الآيات الكريمات من سورة المرسلات تشير إلى قدرة الله تعالى المطلقة على خلق النّاس من ماءٍ مهين ، وجعلهم فى قرارٍ مكين ، وإخراجهم بشرًا ينتشرون فى الأرض الّتى إليها يعودون . قال تعالى[2] : ﴿ ألم نخلقكم من ماءٍ مهين . فجعلناه فى قرارٍ مكين . إلى قَدَرٍ معلوم . فقدرنا فنعم القادرون . ويلٌ يومئذٍ للمكذّبين . ألم نجعل الأرض كِفاتا[3] أحياءً وأمواتا . وجعلنا فيها رواسي شامخاتٍ وأسقيناكم ماءً فراتا . ويلٌ يومئذٍ للمكذّبين ﴾ .

ولمّا كان تدبّر النّفس الإنسانية والغوص فى أعماقها يحتاج درجةً من الإدراك فوق العلم كان ثمّة تنبيهٌ فى التّذييل على تفصيل الله تعالى الآيات لقومٍ يفقهون : ﴿ قد فصّلنا الآيات لقومٍ يفقهون ﴾ لقد جاء الفقه فى حقّ التّعامل مع النّفس

---

(١) تفسير ابن كثير ١٥٩/٢ .
(٢) سورة المرسلات ٢٠ ـ ٢٨ .
(٣) الكفت : القبض والجمع . والأرض تجمع النّاس على ظهرها أحياءً وفى بطنها أمواتا .

الإنسانيّة[1] فى حين جاء العلم فى حقّ النّجوم الّتى يهتدى بها النّاس وذلك فى الآية الكريمة السّابقة .

ولّما كان ربّ العزّة قد جعل من الماء كلّ شيء حيّ ومن ذلك الطّعام فقد تحدّثت الآية الكريمة التّالية فى هذه المعانى فإلى .

الآيـــة رقـــم (٩٩)

قال تعالى : ﴿ وهو الّذى أنزل من السّماء ماءً فأخرجنا به نبات كلّ شيء فأخرجنا منه خضِرًا نخرج منه حبًّا متراكبًا ومن النّخل مِنْ طلعها قِنوانٌ دانيةٌ وجنّاتٍ من أعنابٍ والزّيتون والرّمّان مشتبهًا وغير متشابه . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه . إنّ فى ذلكم لآياتٍ لقومٍ يؤمنون ﴾ .

تحدّثت أولى آيات القسم عن فلق الله تعالى كلاًّ من الحبّ والنّوى لإخراج الزّرع والشّجر . ولّما كانت هذه العمليّة إنّما تتمّ بإرادة الله تعالى بفعل الماء الّذى ينزله الله تعالى من السّماء والّذى جعل الله سبحانه وتعالى منه كلّ شيء حيّ ابتداءً بالنّبات المصدر الأوّل لغذاء الإنسان ، فقد تحدّثت هذه الآية الكريمة عن الماء وعن أنواعٍ مختلفة من النّبات ترضى العين وتبهج النّفس وتُسْقَى كلُّها بذلك الماء الواحد.

إنّ الآية الكريمة تبدأ على غرار آيتين كريمتين سابقتين بالقول : ﴿ وهو الّذى ﴾ والمعنى أنّ الّذى أتى بكلّ هذه الأمور العجيبة هو الله تعالى وحده لا شريك له القادر على كلّ شيء الفعّال لما يريد . وحينما يكون الله تعالى هو الّذى له وحده دون سواه الخلق والأمر فذلك معناه أنّه جلّ وعلا وحده دون سواه المستحقّ للعبادة.

---

(١) يقول الرّاغب الأصفهانيّ : « فقه » ٣٨٤ : « الفقه هو التّوصّل إلى علمٍ غائبٍ بعلم شاهد فهو أخصّ من العلم .

إنّ الآية الكريمة فى القول : ﴿ وهو الّذى أنزل من السّماء ماءً ﴾ تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له هو الّذى أنزل من السّماء ماءً . وبما أنّ لفظة ماء جاءت منكّرة فذلك معناه أنّها تفيد الكثرة هنا . ومِنْ أين ينزل الماء بإرادة الله تعالى؟ ينزل من السّحاب المرفوع بإرادة الله تعالى بين السّماء والأرض . وعلى عادة العرب الّذين نزل القرآن الكريم بلسانهم فى إطلاق لفظة السّماء على كلّ ما علاهم من سماءٍ وسحابٍ وسقف أطلق القرآن الكريم لفظة السّماء على السّحاب . وإنّ هذا القول فى الآية الكريمة : ﴿ وهو الّذى أنزل من السّماء ماءً ﴾ يثير فى النّفس العديد من التّساؤلات ، منها : من هو الّذى أنشأ السّحب ؟ والجواب معروف . إنّه الله تعالى خالق كلّ شيء . ومن أيّ شيء تتألّف السّحب بإرادة الله تعالى ؟ من بخار الماء . ومن أوجد الماء الّذى تبخّر بفعل الحرارة المتولّدة من مصادر متعدّدة ؟ إنّه الله تعالى ؟ ومن أوجد هذه الحرارة ؟ إنّه الله تعالى . وما الّذى حمل البخار إلى طبقات الجوّ العليا وكيف تمّ ذلك ؟ إنّها الرّياح الّتى حملت البخار بإرادة الله تعالى فتكوّنت السّحب . ومن الّذى أوجد الرّياح ؟ الله تعالى . ولمّا كان نزول المطر إنّما يتمّ وليد التقاء مجموعةٍ من الرّياح فمن الّذى فعل كلّ ذلك ؟ إنّه الله تعالى . وكما خلق الله تعالى الرّياح وأنشأ السّحاب الثقال أوجد الرّعد وأرسل الصّواعق . وهل تطيق الرّياح حمل حصاةٍ صغيرةٍ فى أحشائها ، وهل تستطيع الرّياح الّتى تحمل السّحب حمل تلك الحصاة مباشرة ؟ لا تطيق الرّياح ذلك بإرادة الله تعالى فضلاً عن السّحب . وكيف تستطيع الرّياح حمل السّحب الثقال الموقرة بالماء والمعروف أنّ الماء من أثقل الأشياء . هل شعرت وأنت تحمل إناءً ممتلئًا بماء زمزم أو بمطلق الماء بثقل ذلك الإناء ؟ وهل أوحى لك ثقل الإناء بثقل السّحاب بين السّماء والأرض والّذى يحمل من ثقيل الماء ما لا يحيط به علمًا إلاّ الله تعالى . وهل غاب عن ذهن مخلوق اكتساح الفيضانات كلّ ما فى طريقها من أخضر ويابس وأشياء بما فى ذلك السّدود الّتى بنيت من أجل جمع الماء وحجزه . وهل فكّر الإنسان فى

العناصر الّتى يتألف منها الماء وهل هذاه الجواب الّذى ليس ثمّة من جوابٍ سواه إلى عبادة الله تعالى خالق كلّ شيء حقّ العبادة .

الحقيقة أنّ الأسئلة الّتى يمكن للإنسان أن يطرحها بشأن مخلوقات الله تعالى لا يمكن أن يأتي عليها الحصر وأنّ هذه الأسئلة ينبغى أن تقود إلى عبادة الله تعالى ، الّذى له وحده دون سواه الخلق والأمر ، حقّ العبادة .

وإنّ هذا الماء النّازل من السّماء والعائد إلى الأرض مرّة أخرى يحيى به الله تعالى كلّ أرضٍ ميتةٍ قابلةٍ للزّرع ، وبإرادة الله تعالى يصل الماء من كلّ أرضٍ إلى أعماقها وإلى الموضع الّذى يحال فيه بين الماء وبين أن ينفذ بإرادة الله تعالى ، وقد قال عزّ من قائل[1] : ﴿ ألم تر أنّ الله أنزل من السّماء ماءً فسلكه ينابيع فى الأرض ثمّ يخرج به زرعًا مختلفًا ألوانه ثمّ يهيج فتراه مصفرًّا ثمّ يجعله حطامًا . إنّ فى ذلك لذكرى لأولى الألباب ﴾ .

وبإرادة الله تعالى يحدث بالماء فلق كلٍّ من الحبّ والنّوى كما قال تعالى : ﴿ إنّ الله فالق الحبّ والنّوى ﴾ وبإرادة الله تعالى يخرج نبات كلّ شيء كما قال تعالى : ﴿ وهو الّذى أنزل من السّماء ماءً فأخرجنا به نباتَ كلّ شيء ﴾ .

أما وقد خرج بإرادة الله تعالى فوق ظهر الأرض نبات كلّ شيء ، وأخذت الأرض زينتها ، وأنبت الله تعالى فيها الحدائق ذات البهجة فإنا نودّ أن نرسم بالقلم أنواع النّباتات الّتى نصّت عليها الآية الكريمة كي نقف على التّناغم العجيب بين تلك الأنواع من النّبات وبين القول فى الآية الكريمة : ﴿ انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ﴾ وإنّ التّناغم بين الأنواع المتعدّدة من المناظر الخلاّبة للنّبات وبين الإغراء بالنّظر فى الآية الكريمة يعزّزه التّنويع فى التّعبير والاختلاف فى الأسلوب على نحو ما مرّ بنا من ذى قبل ، وعلى نحو القول فى الآية الكريمة هنا : ﴿ والزّيتون والرّمّان مشتبهًا وغير متشابه ﴾ .

---

(١) سورة الزّمر ٢١ .

فلنمش خطوةً خطوة مع الأرض الّتى أحياها الله تعالى بالماء فانفلق حبّها ونواها وخرج نبتها . إنّها الآن أرضٌ خضراء تملأ كلّ عينٍ لذّةً وكلّ نفسٍ بهجة .

إنّ هذا النّبت يُخْرِج شطأه ويُخْرِج الله سبحانه وتعالى منه خَضِره ، أي يخرج الله تعالى من النّبات شيئًا أخضر[1] وزرعاً وشجرًا أخضر[2] وقد عرفنا أنّ الزّرع وليد الحبّ، وأنّ الشّجر وليد النّوى . وكأنّنا الآن بصدد أحجامٍ متنوّعةٍ من النّبات بعامّةٍ ومن كلّ نبتةٍ بخاصّة . وكأنّ من النّبت ما أخذ صورة الزّرع وما أخذ صورة الشّجر .

ويتحدّث السّياق عن نوعٍ واحدٍ من الزّرع ونوعٍ واحدٍ من الشّجر . أمّا النّوع الواحد من الزّرع ففى القول : ﴿ نخرج منه حبًا متراكبا ﴾ والمراد بالحبّ المتراكب الحبّ الّذى يركب بعضه بعضًا فى السّنبلة كالقمح والشعير والأرز[3] وإنّ من أهمّ ما نودّ التّنبيه عليه ممّا يؤكّد التّنويع الّذى تتّسم به آيات القسم لفظًا ومعنى التّحوّل من صيغة الزّمن الماضى أخرجنا إلى صيغة الزّمن المضارع نخرج وذلك فى القول : ﴿ فأخرجنا به نبات كلّ شيءٍ فأخرجنا منه خضرًا نخرج منه حبًّا متراكباً ﴾ ويصحّ أن يقال تعليلاً لهذا الاختلاف فى التّعبير - والله تعالى أعلم بالمراد - إنّ الحديث سار على وتيرةٍ واحدة فى القول مرّتين اثنتين : ﴿ فأخرجنا ﴾ لأنّ عمليّة الإخراج فى هاتين المرّتين من حقّ كلّ نبته . ولمّا كان الحديث بعد ذلك عن النّوع من الزّرع ذى العلاقة بالإنسان فى المقام الأوّل ، ذلك الإنسان الّذى كرّمه ربّه وفضّله على كثيرٍ ممّن خلق تفضيلا ، كان ثمّة التّحول إلى صيغة أخرى ، وإنّ مجرد التّحوّل هذا مشعرٌ بأنّ ثمّة حكمة . وحينما كان التّحوّل إلى صيغة الزّمن المضارع كان ثمّة التّنبيه إلى استمرار عمليّة الإخراج للحبّ المتراكب وتجدّدها ودوامها من أجل هذا الإنسان الّذى سخّر الله تعالى من أجله كلّ ما فى السّماوات وما فى الأرض .

وإنّ التّحوّل من صيغةٍ إلى أخرى والتّنويع فى التّعبير كان كلٌّ منهما موطّئًا لاختلافٍ أكبر فى التّعبير وذلك فى الحديث عن النّخل . والمعروف أنّ النّخلة عند

---

(١) الجلالين . (٢) تفسير ابن كثير ١٥٩/٢ . (٣) انظر مثلاً تفسير الطّبريّ ١٩٤/٧ .

العربيّ بمثابة أمّه الرّءوم . قال تعالى : ﴿ ومن النّخل من طلعها قنوانٌ دانيةٌ ﴾ .

ولا يبدو إكرام الله تعالى للإنسان فى اختلاف التّعبير عن النّخلة الّتى تخصّه وفى التّحوّل إلى أسلوبٍ جديدٍ فقط ، إنّما يبدو ذلك الإكرام كذلك فى اختيار الاختلاف فى التّعبير نوعًا سهلاً من النّخل ، ألا وهو النّخل ذو القنوان الدّانية بسبب قِصَر النّخلة . والطّلع من النّخل شيءٌ يخرج كأنّه نعلان مطبقان والحمل بينهما منضود[١] . والقِنوان جمع قنو كما الصّنوان جمع صِنو وهو العذق . يقال للواحد هو قِنو وقُنو وقِنا يثنّى قنوانِ ويجمع قِنوانٌ وقُنوان[٢] والعِذق من النّخلة كالعنقود من العنب[٣] عن ابن عبّاس : يعنى بالقنوان الدّانية قصار النّخل لاصقة عذوقها بالأرض[٤] .

وكما يبدو تكريم الله تعالى للإنسان فى جعل القنوان من النّخلة دانية بسبب قصر النّخلة هنا ، وبسبب سهولة الحصول على ثمر النّخلة مطلقًا ، يبدو جمال منظر الخضرة أمامنا حينما نتخيّل النّخل وقد انسجم بسبب قصره مع الزّروع والأعناب وأشجار الزّيتون والرّمّان وكلّها أنواعٌ من الزّروع والأشجار محدودة الارتفاع . إنّ النّخلة بصفةٍ عامّة عالية الارتفاع ، وإنّ السّياق هنا يختار قصار النّخل للحكمة الّتى تبيّنت .

وانظر إلى التّدرج الّذى عمّق من تنّوع المنظر وذلك فى التّحوّل من الكبير إلى الصّغير وذلك فى الانتقال من النّخلة ، إلى طلع النّخلة ، إلى قنوان الطّلع ، إلى دنوّ القنوان .

وحينما ننظر إلى النّبات نتبيّن النّصّ معه على الخضرة ، وحينما ننظر إلى النّخل لا نتبيّن معه النّصّ على الخضرة لأنّ النّخل محدود الخضرة بالقياس إلى غيره من الزّروع والأشجار . فما الّذى يلاحظ على الأعناب الّتى تحدّثت عنها الآية الكريمة بعد ذلك. لقد نبّهت الآية الكريمة على خضرتها الشّديدة الواسعة وذلك باستعمال لفظة

---

(١) القاموس المحيط : « طلع » وطابق بين الشّيئين جعلهما على حذو واحد .

(٢) تفسير الطّبريّ ٧/١٩٤ .

(٣) القاموس المحيط : « عذق » .

(٤) تفسير الطّبريّ ٧/١٩٥ .

جنّة ، أي الّتي تجنّ بخضرتها وتغطّى بسوادها الحديقة : ﴿ وجنّاتٍ من أعناب ﴾ والمعنى - والله تعالى أعلم - فأخرجنا منه خضرًا وجنّات من أعناب . إنّنا بصدد جنّاتٍ من أعناب ولسنا بصدد جنّةٍ واحدة وما أقدر العنب على تغطية الأرض بخضرته بسبب ورقه العريض .

إنّ النّبت محدود الارتفاع ، وإنّ الزّرع محدود الارتفاع كذلك وإنّ لدينا فى السّنابل دليلاً على ذلك ، وإنّ النّوع المختار من النخّل هنا محدود الارتفاع كذلك . وإنّ الجنّات من الأعناب إنّما تقوم الواحدة منها على عريشها فهي محدودة الاتفاع كذلك . وإنّ الشيء ذاته يلاحظ بشأن شجر الزّيتون والرّمّان : ﴿ والزّيتون والرّمّان مشتبهًا وغير متشابه ﴾ .

إنّ الزّيتون والرّمّان بإرادة الله تعالى مشتبهٌ ورقًا وشكلاً ، وإنّه بإرادة الله تعالى غير متشابهٍ ثمرًا ولونًا وطعمًا ورائحة . وكما يبدو القرب والبعد بين الزّيتون والرّمان يبدو القرب والبعد فى التّمهيد لكلّ ذلك فى القول : ﴿ مشتبهًا وغير متشابه ﴾ إنّ القرب والبعد من مظاهر التّنويع فى الألفاظ والمعانى . وإنّ القول بعد ذلك مقوٍّ لذلك التّنويع آمرٌ بالنّظر والتأمّل والتدّبّر . قال تعالى : ﴿ انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ﴾ إنّ ثمرة شجرة الزّيتون غير ثمرة شجرة الرّمّان . وإنّ الثمرة فى كلّ منهما ذات لونٍ فى أوّل ظهور الثّمرة هو أقرب إلى الخضرة ، وإنّ اللون وقت اليَنع والنّضج والبلوغ[1] لونٌ آخر . وإنّ هذه الألوان الأخر معمّقةٌ لاختلاف المناظر ومقوّية للأمر بالنّظر فى القول : ﴿ انظروا ﴾ إنّ فى كلّ هذه الآيات ، ومنها آيتا النّخيل والأعناب وهما أشرف الثّمار عند أهل الحجاز[2] ، وفى كلّ هذه الأنواع من النّباتات والزروع والأشجار والثّمار الّتى تُسْقَى بماءٍ واحدٍ لدلائل واضحات لقومٍ يؤمنون بالله تعالى ربًّا ، وبمحمّد ﷺ رسولاً ، وبالإسلام دينًا وبالقرآن شرعةً ومنهاجًا . ونستطيع أن نفهم أنّ فى مجيء حرف اللّام الّذى يفيد البعد بعد اسم

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٩٦/٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ١٥٩/٢ .

الإشارة فى القول ﴿ ذلكم ﴾ تنبيهًا إلى رفيع منزلة تلك الآيات ، وأنّ فى مجىء حرف الميم لجمع الذّكور بقصد الإشارة إلى كثير الآيات ، قوّةً للأمر بالنّظر إلى الثّمر إذا أثمر الزّرع والشّجر المتعدّد الألوان المختلف الأشكال .

وعلى الرغم من كلّ هذه الآيات البيّنات فإنّ هنالك من تورّط فى الشّرك وإنّ السّياق ليتحوّل إلى الإنكار على المشركين فإلى

الآيـــة رقـــم (١٠٠)

قال تعالى : ﴿ وجعلوا لله شركاءَ الجنَّ وخلقهم وخرقوا له بنين وبناتٍ بغير علم. سبحانه وتعالى عمّا يصفون ﴾ .

من مظاهر إشراك المشركين أنّهم جعلوا لله تعالى الجنّ شركاء وقد خلق الله سبحانه وتعالى الجنّ المعبودين كما خلق العابدين فكيف يعبد المخلوقون مخلوقين مثلهم . وإنّ عبادة المشركين الجنّ يصحّ أن تكون عن طريق عبادتهم مباشرة ، ويصحّ أن تكون عن طريق طاعتهم بعمل ما يغضب الله تعالى كأن يأمروهم بتحليل ما حرّم الله تعالى أو بتحريم ما أحّل الله تعالى فيطيعوهم . جاء فى سورة الكهف وصف إبليس اللّعين بأنّه كان من الجنّ . قال تعالى[1] : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس كان من الجنّ ففسق عن أمر ربّه . أفتتّخذونه وذرّيّته أولياء من دونى وهم لكم عدوّ . بئس للظّالمين بدلا . ما أشهدتهم خلق السّماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متّخذ المضلّين عضدا﴾ وإنّ الآيات الكريمات التّاليات من سورة النّساء لتتضمّن بعض تهديدات اللّعين لبنى آدم وبعض إغراءاته قال تعالى[2] : ﴿ إنّ الله لا يغفر أن يُشْرَك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلالاً بعيدا . إن يدعون من دونه إلاّ إناثًا وإن يدعون إلاّ

---

(١) سورة الكهف ٥٠ ، ٥١ .

(٢) سورة النّساء ١١٦ - ١٢١ .

شيطانًا مريدًا لعنه الله . وقال لأتخذنّ من عبادك نصيبًا مفروضًا : ولأضلّنّهم ولأمنّينّهم ولآمرنّهم فليبتّكنّ آذان الأنعام ولآمرنّهم فليغيّرنّ خلق الله . ومن يتّخذ الشّيطان وليًّا من دون الله فقد خسر خسرانًا مبينًا . يعدهم ويمنّيهم وما يعدهم الشّيطان إلاّ غرورًا . أولئك مأواهم جهنّم ولا يجدون عنها محيصا ﴾ .

وما معنى : ﴿ وخرقوا ﴾ من القول : ﴿ وخرقوا له بنين وبناتٍ بغير علم ﴾ اختلقوا وائتفكوا وتخرّصوا وكذبوا كما قاله علماء السّلف[1] والخَرْق : قطع الشّيء على سبيل الفساد من غير تدبّرٍ ولا تفكّر . وهو ضدّ الخلق . وإنّ الخلق هو فعل الشّيء بتقديرٍ ورفق ، والخرق بغير تقدير . قال تعالى : ﴿ وخرقوا له بنين وبناتٍ بغير علم ﴾ أى حكموا بذلك على سبيل الخرق[2] .

لقد عرفنا من الوجهة اللّغويّة الفرق بين الخلق والخرق ، وقد جاءت الجملتان متجاورتين فى الآية الكريمة : ﴿ وخلقهم وخرقوا له ﴾ ولا يخفى ما بين الجملتين من جناسٍ ناقص ﴿ خلق ﴾ ﴿ خرق ﴾ وانظر وراء التّآلف بين الجملتين فى النّطق التّنافر بينهما فى المعنى .

إنّ الله سبحانه وتعالى خالق كلّ شيء ، وخالق الجنّ ، وخالق المشركين من الإنس الّذين عبدوا الجنّ ، وخالق اليهود الّذين قالوا عزيرٌ ابن الله ، وخالق النّصارى الّذين قالوا المسيح ابن الله ، وخالق مشركى العرب الّذين قالوا الملائكة بنات الله : ﴿ كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبا ﴾ إنّ الله سبحانه يخلق هؤلاء العابدين ويأمرهم بأن يعبدوه جلّ وعلا وحده لا شريك له وهم يأتون أفظع الخرق ويرتكبون أكبر الجرم وذلك بالتّورّط فى الذّنب الّذى لا يغفره الله تعالى ألا وهو الإشراك مع الله تعالى سواه .

وانظر إلى جملة وخلقهم فى القول : ﴿ وجعلوا لله شركاء الجنّ وخلقهم ﴾ وكأنّ هذه الجملة المتمّمة للمعنى العصا الغليظة الأليمة الّتى يُغْمَز بها على سبيل

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/١٦٠ . (٢) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « خرق » ١٤٦ .

التّأنيب والتّنبيه من بادل الإحسان بالكفران . إنّ الله سبحانه وتعالى خلق الإنس العابدين والجنّ المعبودين وقد جعل الإنس الجنّ شركاء لله تعالى فى العبادة ! .

وإذا كان الأوّلون قد عبدوا الجنّ بطريقٍ مباشرٍ أو بطريقٍ غير مباشرٍ فإنّ الآخرين تورّطوا فى صريح الكفر فتورّطوا فى عظيم الخَرْق والسّفه بأن زعموا أنّ لله تعالى بنين وبناتٍ بغير علم .

وتبادر الآية الكريمة إلى تنزيه الله تعالى عمّا نسبه إليه الظّالمون من البنين والبنات والصّاحبة والولد : ﴿ سبحانه وتعالى عمّا يصفون ﴾ والمعنى : تنزّه وتعالى عمّا وصفه جلّ وعلا به الظّالمون من ولدٍ وصاحبةٍ وشريك .

وتجاه مبادلة المشركين الإحسان بالكفران والتّورّط فى أكبر ذنبٍ وهو الشّرك كان ثمّة تحوّل إلى كبرى مخلوقات الله تعالى ألا وهي السّماوات والأرض حينما لم ينتفع المشركون بدقائق الآيات ، وتجاه الاقتران فى الأذهان بين الذّرّيّة وبين الزّوجة كان نفيٌ للسّبب وهو الزّوجة أو الصّاحبة وفى ذلك نفيٌ للمسبَّب ، وكان ذلك فى الآية الكريمة التّالية فإلى .

الآيـــة رقـــم (١٠١)

قال تعالى : ﴿ بديع السّماوات والأرض أنّى يكون له ولدٌ ولم تكن له صاحبةٌ وخلق كلّ شيء وهو بكلّ شيء عليم ﴾ .

ما أبدع لفظ ﴿ بديع ﴾ معنىً وصوتًا ، خاصّةً وأنّه من الوجهة الصّوتيّة على وزن ﴿ عليم ﴾ فى نهاية الآية الكريمة . إنّ الله سبحانه وتعالى خالق السّماوات والأرض ومبدعهما على غير مثالٍ سابق . وإنّ هذا الإله الواحد الخلاّق العظيم الأوّل الآخر الظّاهر الباطن كيف يصحّ عقلاً أن يكون له ولدٌ وذرّيّة ولم تكن له جلّ وعلا وقتًا من الأوقات زوجةٌ وصاحبة ! لقد جرت العادة بشأننا نحن المخلوقين أن نتزوّج وأن تكون لنا الذّرّيّة لحاجتنا لبقاء النّسل وللنّفع والمساعدة . إنّه سبحانه

وتعالى هو الغنيّ عن كلّ شيء لأنّه جلّ وعلا هو خالق كلّ شيء ولأنّه سبحانه وتعالى العليم بكلّ شيء : ﴿ لو أراد الله أن يتّخذ ولدًا لاصطفى ممّا يخلق ما يشاء . سبحانه هو الله الواحد القّهار ﴾(١) ﴿ وقل الحمد لله الّذى لم يتّخذ ولدًا ولم يكن له شريكٌ فى الملك ولم يكن له وليٌّ من الذّلّ وكبّره تكبيرًا ﴾(٢) ﴿ الّذى له ملك السّماوات والأرض ولم يتّخذ ولدًا ولم يكن له شريكٌ فى الملك وخلَقَ كلّ شيءٍ فقدّره تقديرًا ﴾(٣) إنّ خالق السّماوات والأرض وما فيهما وما بينهما القدير العليم لا حاجة له للصّاحبة والولد فعلى المشركين أن يتحوّلوا موحّدين قبل فوات الأوان : ﴿ أن تقول نفسٌ يا حَسْرَتَى على ما فرّطت فى جنب الله وإن كنت لمن السّاخرين . أو تقولَ لو أنّ الله هدانى لكنت من المتّقين . أو تقولَ حين ترى العذابَ لو أنّ لى كرّةً فأكون من المحسنين . بلى قد جاءتك آياتى فكذّبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ﴾ .

وإنّ لسان حال الآية الكريمة إذا كان يأمر بإفراد الله تعالى بالعبادة فإنّ لسان مقال الآية الكريمة التّالية يأمر بذلك فإلى .

الآيـــة رقـــم (١٠٢)

قال تعالى : ﴿ ذلكم الله ربّكم لا إله إلاّ هو خالق كلّ شيء فاعبدوه وهو على كلّ شيءٍ وكيل ﴾ .

إنّ ذا من ذلكم اسم إشارة ، واللاّم للبعد ، وتفيد هنا رفيع المنزلة ، والكاف للخطاب ، والميم علامة جمع المخاطبين . وكأنّ الخطاب فى القول : ﴿ ذلكم ﴾ يتّجه إلى النّاس أجمعين ، وفى مقدّمتهم المشركون . وانظر إلى جمع الآية الكريمة فى نسق بين لفظ الجلالة : ﴿ الله ﴾ الممثّل لتوحيد الألوهيّة ، ولفظ : ﴿ ربّ ﴾ الممثّل لتوحيد الرّبوبيّة . إنّ لفظ الجلالة : ﴿ الله ﴾ يفيد العموم ، فالله سبحانه

---

(١) سورة الزّمر ٤ . (٢) سورة الإسراء ١١١ . (٣) سورة الفرقان ٢ .

وتعالى خالق كلّ شيء هو الّذى ينبغى أن يُفْرَدَ بالعبادة وحده لا شريك له . وإنّ لفظ الرّبّ يفيد الخصوص ، فربّ العالمين جلّ وعلا هو مربّى الخلق بنعمه وآلائه . والمعروف أنّ المشركين يؤمنون بتوحيد الرّبوبيّة ويقرّون به ولكنّهم بشأن توحيد الألوهيّة وإشراكهم فى العبادة مع الله تعالى سواه يجىء على لسانهم القول(١) : ﴿ ما نعبدهم إلاّ ليقرّبونا إلى الله زُلْفى إنّ الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون . إنّ الله لا يهدى من هو كاذبٌ كفّار ﴾ إنّ الإقرار بتوحيد الرّبوبيّة لا يكفى بأن يُعْتَرف بأنّ الله سبحانه وتعالى هو الخالق الرّازق المدبّر المحيى المميت وما إلى ذلك من مظاهر توحيد العباد الله تعالى بأفعاله . إنّ الإقرار يجب أن يكون بتوحيد الألوهيّة والرّبوبيّة معًا كما يتبيّن من القول : ﴿ ذلكم الله ربّكم لا إله إلاّهو ﴾ إنّ توحيد الألوهيّة توحيد العباد الله تعالى بأفعالهم فلا يعبدون إلاّ الله تعالى ، ولا يدعون إلاّ الله تعالى ، ولا يذبحون إلاّ لله تعالى وهكذا .

أما وقد قدّمت الآية الكريمة فى الذّكر الأوّل الّذى ليس قبله شيءٌ وحقّه جلّ وعلا فى القول : ﴿ ذلكم الله ربّكم لا إله إلاّ هو ﴾ فقد تحوّلت إلى خلق الله تعالى هذا الملكوت العظيم من سماواتٍ وأرضين وما فيهنّ ومن فيهنّ ، وبنت على ذلك أهم قرار وأخطر حكم ألا وهو إفراد الله تعالى بالعبادة ، وعقّبت على ذلك القرار أو الحكم بذكر أعظم حيثيّة موجبة لإفراد الخالق الواحد بالعبادة وهو كونه الوكيل على كلّ شيء الرّقيب الحفيظ .

لقد جاءت الإشارة إلى حقّ الله تعالى مربّى عباده بنعمه فى القول : ﴿ ذلكم الله ربّكم لا إله إلاّ هو ﴾ وجاءت الإشارة إلى عمليّة الخلق فى القول : ﴿ خالق كلّ شيء ﴾ وجاءت الإشارة إلى الحفظ الّذى لا يكون إلاّ عن علم فى القول : ﴿ وهو على كلّ شيء وكيل ﴾ والمعروف أنّ النّصّ على العلم جاء فى الآية الكريمة السّابقة فى القول : ﴿ وهو بكلّ شيءٍ عليم ﴾ ويلاحظ أنّ حرف الجرّ ﴿ على ﴾

---

(١) سورة الزّمر ٥٦ ـ ٥٩ . (٢) سورة الزّمر ٣ .

الدّالّ على الاستعلاء والمؤكّد لعمليّة الحفظ يجيء فى القول هنا : ﴿ وهو على كلّ شيءٍ وكيل ﴾ .

والآية الكريمة التّالية تتحدّث عن بعض نعوت العليم الخلاّق القدير فإلى .

الآيـــة رقـــم (١٠٣)

قال تعالى : ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللّطيف الخبير ﴾ .

إنّ مجيء جملة : ﴿ لا تدركه ﴾ وجملة : ﴿ يدرك ﴾ يذكّر كلٌّ منهما بمثل هذه الآية الكريمة من سورة يس[١] قال تعالى : ﴿ لا الشّمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا اللّيل سابق النّهار وكلٌّ فى فلكٍ يسبحون ﴾ .

وإنّ مجيء لفظة ﴿ الأبصار ﴾ يذكّرنا بمثل هاتين الآيتين من سورة الأعراف[٢] قال تعالى : ﴿ والّذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون. وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ﴾ وكأنّنا فى سبيل معرفة المعنى الدّقيق للأبصار بحاجةٍ إلى معرفة الفرق بين جملة ﴿ ينظرون ﴾ وجملة ﴿ يبصرون ﴾ من آية سورة الأعراف الكريمة .

بشأن النّظر يقال : نظرت إلى كذا إذا مددتَ طرفك إليه رأيته أو لم تره[٣] وبذلك يكون معنى : ﴿ ينظرون إليك ﴾ يتّجهون إليك بأعينهم الحسّيّة ، ولا يترتّب على ذلك بالضّرورة الرّؤية أو عدمها .

وبشأن البصر هو يقال للجارحة النّاظرة من ناحية نحو قوله تعالى : ﴿ كلمح البصر ﴾ ، ﴿ وإذ زاغت الأبصار ﴾ وللقوّة الّتى فيها من ناحيةٍ أخرى[٤] ويقال لقوّة القلب المدركة بصيرة وبصر نحو قوله تعالى : فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد. وقال : ما زاغ البصر وما طغى . وجمع البصر أبصار ، وجمع البصيرة بصائر[٥] .

---

(١) الآية ٤٠ .
(٢) الاية ١٩٧ ، ١٩٨ .
(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « نظر » ٤٩٧ .
(٤و٥) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « بصر » ٤٩

من النصوص السّابقة يتبيّن أنّ معنى الأبصار الجارحة المبصرة والقادرة على الإبصار ، والقوّة الّتى تستطيع العين المبصرة أن تبصر بواسطتها .

فما الّذى يلاحظ على القول فى الآية الكريمة : ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾ الّذى يلاحظ أنّ صدر القول ينفى عن الأبصار أن تدرك الذّات العليّة ذاتها ، وأنّ عجز القول يثبت للذّات العليّة القدرة على إدراك الأبصار ذاتها . بشأن البشر تعجز قواهم المبصرة أن تدرك الذّات العليّة ، وبشأن الذّات العليّة هي قادرةٌ على إدراك أبصار المخلوقين ومن باب أولى ما دون أبصارهم ممّا ينبغى أن يقلّ عن الأبصار لطفًا ودقّة .

وحينما يكون المعنى : لا تدركه جلّ وعلا أبصار المخلوقين وهو جلّ وعلا يدرك أبصارهم يكون معنى ذلك أنّ أبصار المخلوقين منطلق الحديث فى صدر القول وعجزه .

ما أشدّ دلالة هذا القول : ﴿ وهو يدرك الأبصار ﴾ على إحاطة هذا الإدراك ودقّته ولطفه . وإنّ هذه المعاني الّتى تهتف بها النّفس الإنسانيّة المتأمّلة المتدبّرة المتعجّبة من لطف ذلك الإدراك يتأكّد ما تشعر به فى أعماقها من لطفٍ وإحاطةٍ ودقّةٍ وخُبْر حينما يتغلغل فى أعماق النّفس بعد ذلك هذا القول الّذى ختمت به الآية الكريمة : ﴿ وهو اللّطيف الخبير ﴾ إنّ الله سبحانه وتعالى هو اللّطيف بأوليائه الخبير بهم، اللّطيف فى إدراك كلّ الأمور ومعالجتها ، الخبير بدقائقها وحقائقها .

وبشأن معنى صدر الآية الكريمة ليس ثمّة مجالٌ للعقل وإنّما هو النّقل فقط : « وقوله : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ ، فيه أقوالٌ للأئمّة من السّلف ، أحدها : لا تدركه فى الدّنيا وإن كانت تراه فى الآخرة ، كما تواترت به الأخبار عن رسول الله ﷺ من غير ما طريقٍ ثابتٍ فى الصّحاح والمسانيد والسّنن »[1] إنّ رسول الله ﷺ أخبر أمّته أنّهم سيرون ربّهم يوم القيامة كما يرى القمر ليلة البدر وكما ترون

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/١٦١ .

الشّمس ليس دونها سحاب[١] ويقول ابن كثير[٢] : « أمّا الكتاب فقوله تعالى : ﴿ وجوهٌ يومئذٍ ناضرة ، إلى ربّها ناظرة ﴾ . وقال تعالى عن الكافرين : ﴿ كلاّ إنّهم عن ربّهم يومئذٍ لمحجوبون ﴾ . قال الإمام الشّافعيّ : فدلّ هذا على أنّ المؤمنين لا يحجبون عنه تبارك وتعالى . وأمّا السّنّة فقد تواترت الأخبار عن أبى سعيد وأبى هريرة وأنس وجريج وصهيب وبلال وغير واحد من الصّحابة عن النّبيّ ﷺ أنّ المؤمنين يرون الله فى الدّار الآخرة فى العرصات وفى روضات الجنّات . جعلنا الله تعالى منهم بمنّه وكرمه آمين » . ولهذا كانت أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها تثبت الرّؤية فى الدّار الآخرة وتنفيها فى الدّنيا وتحتجّ بهذه الآية : ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾ فالّذى نفته الإدراك الّذى هو بمعنى رؤية العظمة والجلال على ما هو عليه فإنّ ذلك غير ممكنٍ للبشر ولا للملائكة ولا لشيء[٣]

أما وقد تبيّن للنّاس طريق الهدى كي يسلكوه وطريق الضّلال كي يهجروه وبالتّالى فإنّهم مسئولون عن الطّريق الّذى يسلكونه والعمل الّذى يأتونه فقد بيّنت الآية الكريمة التّالية هذه المعانى فإلى

الآيـــة رقـــم (١٠٤)

قال تعالى : ﴿ قد جاءكم بصائر من ربّكم فمن أبصر فلنفسه ومن عَمِيَ فعليها. وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ .

تتحدّث الآية الكريمة عن كبرى آيات المصطفى ﷺ وكبرى معجزات هذا الدّين، إنّها البصائر - جمع بصيرة - بمعنى الآيات البيّنات والحجج الواضحات الّتى جاءت النّاس من ربّهم جلّ وعلا . والمعروف أنّ جملة جاء فى القرآن الكريم تفيد القرب والمجيء الفعليّ . والمعروف كذلك أنّ لفظة ربّ تنبّه إلى تربية الله تعالى

---

(١) تفسير الطّبريّ ٧/٢٠٠ . (٢) تفسير ابن كثير ٢/١٦١ . (٣) تفسير ابن كثير ٢/١٦٢ .

عباده بالنّعم والآلاء وقيامهم بواجب الشّكر لله تعالى عليها . أما وقد بيّن القرآن الكريم كلاًّ من طريق الخير وطريق الشّرّ فذلك معناه أنّ الإنسان مسئولٌ عن اختياره الطّريق الّذى يسلك . إنّه إن كانت بصيرته نيرّةً فسلك طريق الهداية فإنّ ثواب أعماله الصّالحة عائدٌ له والفائدة راجعةٌ لنفسه . وإنّه إن كانت بصيرته عمياء وكان فى هذه الحياة الأولى أعمى فإنّه فى الآخرة أعمى وإنّ وبال أعماله السّيّئة مرتدٌّ عليه والعياذ بالله .

ولمّا كانت وظيفة المصطفى ﷺ تقف عند البلاغ وحده فإنّ الآية الكريمة فى جزئيّتها الأخيرة تقرّر هذا المعنى : ﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ والحفيظ بمعنى الرّقيب.

وحينما تكون السّورة الكريمة مكّيّة قد نزلت قبل الهجرة حينما كان للمشركين السّلطة فى مكّة فذلك معناه أنّ الخطاب يتّجه فى المقام الأوّل إلى أولئك المشركين ، وبذلك تأخذ الآية الكريمة بسبب من التّهديد والوعيد ، وإنّ لحرفىِ الجرّ اللاّم وعلى، فى القول : ﴿ فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها ﴾ أبلغ دور وأعظم أثر بسبب قدرة الحرفين على جعل النّاس فريقين ، فريقَ أهل الجنّة وفريق أهل السّعير . وما ألطف التّجانس بين لفظة ﴿ بصائر ﴾ وجملة : ﴿ أبصر ﴾ وما أجمل إفادة من أبصر بعين بصيرته وانتفاعه من البصائر البيّنات والحجج الواضحات من ربّ العالمين. وإذا كان لحرف الصّاد دوره صوتيًّا فى القول : ﴿ قد جاءكم بصائر من ربّكم فمن أبصر فلنفسه ﴾ فإنّ لحرف العين الدّور ذاته بشأن المعنى الآخر المقابل فى القول : ﴿ ومن عمي فعليها ﴾ .

وعلى الرّغم من تصريف آي الكتاب العزيز فإنّ المشركين يظلّون يردّدون أكاذيبهم وذلك فى مقابل زيادة الّذين آمنوا وآتاهم الله تعالى العلم إيمانًا . وإلى هذه المعاني أشارت الآية الكريمة التّالية فإلى .

الآيـــة رقـــم (١٠٥)

قال تعالى : ﴿ وكذلك نصرّف الآيات وليقولوا درست ولنبيّنه لقومٍ يعلمون ﴾

في مثل هذه الطّرائق من التّوضيح والتّبيين نصرّف آيات الكتاب العزيز ونفصّل المعاني ونوضّح الأحكام ونبيّن الحلال والحرام . ومع ذلك فإنّ كفّار مكّة ومن شاكلهم يقولون إنّك يا محمّد قد درّسك هذا الكتاب العزيز ذلك الرّوميّ الأعجميّ الحدّاد! وقد دحض القرآن الكريم هذه الفرية . قال تعالى[1] : ﴿ ولقد نعلم أنّهم يقولون إنّما يعلّمه بشر . لسان الّذى يلحدون إليه أعجميّ وهذا لسانٌ عربيٌّ مبين﴾ كما دحض القرآن الكريم فرية الّذين كفروا بأنّ قومًا آخرين قد أعانوا المصطفى ﷺ على تأليف القرآن الكريم . قال تعالى[2] ﴿ وقال الّذين كفروا إنْ هذا إلاّ إفكٌ افتراه وأعانه عليه قومٌ آخرون فقد جاءوا ظلمًا وزورًا . وقالوا أساطيرُ الأوّلين اكتتبها فهي تُمْلَى عليه بكرةً وأصيلا . قل أنزله الّذى يعلم السّرّ فى السّماوات والأرض إنّه كان غفورًا رحيمًا ﴾ .

إنّ الكافرين لا يزدادون باستمرار نزول آي الذّكر الحكيم إلاّ تكرارًا لتلك الافتراءات ، وفى المقابل يزيد المؤمنين المتّقين الّذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنهم إيمانًا وعلمًا ويقينا .

---

(١) سورة النّحل ١٠٣ .

(٢) سورة الفرقان ٤ ــ ٦ .

[١١]

« اتّبع ما أوحي إليك ربّك من كلماتٍ تمّت صدقًا وعدلاً ، وأعرض عن المشركين الضّالّين المضلّين أولياء الشّياطين »

الآيـات (١٠٦ ـ ١١٧)

اتَّبِعْ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ
الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ
حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ
يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا
لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ
لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا
جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ
يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾
۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا
عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا
شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ
ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ
﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ
وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ
أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ
وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ
فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا
وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن
تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن
يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾

فى هذا القسم مجموعةٌ من التّوجيهات للمصطفى ﷺ وللمؤمنين فى هذه الفترة المكّيّة المبكّرة من تاريخ الدّعوة الّتى لم يؤذن بالقتال فيها بعد . والهدف تثبيت فؤاده ﷺ وأفئدة الفئة المؤمنة القليلة العدد آنذاك . إنّه عليه الصّلاة والسّلام يؤمر بأن يتّبع ما أوحى إليه ربّه جلّ وعلا الّذى لا إله إلاّ هو والإعراض عن المشركين . وفى الأمر بالاتّباع نهيٌ ضمنيٌّ عن الابتداع فقد أكمل الله تعالى دين الإسلام ورضيه لنا وأتمّ به النّعمة علينا . إنّ المشركين قد اختاروا بمحض إرادتهم الشّرك ولو شاء الله تعالى ما أشركوا ولكنّه جلّ وعلا لم يشأ وما جعل الله تعالى المصطفى ﷺ حفيظًا رقيبًا عليهم ولا وكيلاً نائبًا عنهم . وينهى السّياق المؤمنين عن سبّ آلهة المشركين كيلا يسبّوا الله تعالى ظلمًا وعدوانًا ، جهلاً وسفها . وهكذا زيّن الله تعالى لكلّ أمّة عملهم وسيجازيهم عليها يوم القيامة . وإنّ كفّار مكّة الّذين أعرضوا عن القرآن الكريم ليقسمون بالله تعالى العظيم غاية وسعهم ومنتهى طاقتهم لئن جاءتهم آيةٌ حسّيّةٌ من الآيات الّتى اقترحوا ليؤمننّ بها وليدخلنّ فى الإسلام بسببها . ويؤمر عليه الصّلاة والسّلام بأن يقول لهم إنّما الآيات عند الله تعالى ينزل منها ما يشاء لا معقّب لحكمه جلّ وعلا . ويُسْأل المؤمنون ما الّذى يشعركم أنّ الآيات المادّيّة المقترحة إذا جاءت المشركين فإنّهم لن يؤمنوا ؟ ولمّا كان المؤمنون قد عرفوا الجواب من الوحي سابقًا فإنّ السّياق يجيب ضمنًا عن السّؤال فيبيّن أنّ الله سبحانه وتعالى سوف يقلّب أفئدة المشركين وأبصارهم آخر مرّة كما قلّب أفئدتهم وأبصارهم فلم يؤمنوا بالقرآن الكريم أوّل مرّة وبذلك سيُتْرَك الكافرون فى طغيانهم يعمهون وفى حيرتهم يترددون . إنّ ربّ العزّة لو أنزل إلى المشركين الملائكة فرأوهم عيانًا بناءً على طلبهم ، وأحيا الموتى وكلّموهم فى شأن محمّد ﷺ ، وحشر عليهم فى صعيدٍ واحدٍ كلّ شيءٍ للغاية ذاتها ولم يشأ الله تعالى لهم أن يؤمنوا فإنّهم لن يؤمنوا لأنّ

الإيمان بمشيئة الله تعالى وليس بمشيئتهم كما زعموا ولكنّ أكثرهم يجهلون هذه الحقيقة . وهكذا جعل الله تعالى لمحمّد بن عبد الله ﷺ كما جعل للنّبيّين السّابقين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ﴿ عدوًّا شياطين الإنس والجنّ يوحى بعضهم إلى بعضٍ زخرف القول غرورًا ﴾ وهكذا فعل الأعداء ما فعلوا بمشيئة الله تعالى وهكذا افتروا على الله تعالى الكذب الّذى سيجازون عليه ، وهكذا مالت قلوبهم إلى الغرور بالباطل لأنّهم لا يؤمنون باليوم الآخر ، وهكذا رضوا عنه واقترفوا الموبقات. والعجيب فى كفّار مكّة أنّهم يطلبون من المصطفى ﷺ أن يحتكم معهم فى شأن القرآن الكريم ودين الإسلام إلى واحدٍ من البشر ! وينكر السّياق عليهم أن يطلبوا منه ﷺ أن يبتغي غير الله تعالى الّذى أنزل القرآن الكريم آياتٍ مفصّلاتٍ حَكَمًا وقاضيا . ولمّا كان بنو إسرائيل أولياء كفّار مكّة ومستشاريهم الأمناء فإنّ السّياق يتحوّل إلى أهل الكتاب هؤلاء فيقرّر أنّهم يعلمون أنّ القرآن الكريم منزّل من ربّ المصطفى ﷺ بالحقّ ، وينهى المصطفى ﷺ أن يكون من الممترين الشّاكّين فى القرآن الكريم كلمة ربّه جلّ وعلا الّتى تمّت صدقًا فى الأقوال والأخبار وعدلاً فى الأحكام والّتى لا تبديل لأيٍّ منها لفظًا ومعنى . وكأنّ فى التّذييل : ﴿ وهو السّميع العليم ﴾ تنبيهًا إلى سماع القرآن الكريم حينما يُتْلى وقد نزل متلوّاً ، وإلى ما اشتمل القرآن الكريم عليه من علمٍ صادق . إنّ القرآن الكريم قد تكفّل الله تعالى بحفظه إلى يوم الدّين ، وإنّ القرآن الكريم معجزٌ بكلّ ما يعطى ويمنح ، يُبْقى ويمنع . ويحذّر السّياق المصطفى ﷺ من طاعة اكثر من فى الأرض لأنّهم ضالّون مضلّون يتّبعون الظّنون ويقولون الكذب . إنّه لا أحد أعلم من الله تعالى بالضّالّين وبالمهتدين . وقد جاء خطابًا للمصطفى ﷺ القول : ﴿ ربّك ﴾ فى الآيات ١٠٦ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٧ .

الآيتـــان رقـــم (١٠٦ و١٠٧)

قال تعالى : ﴿ اتّبع ما أوحي إليك من ربّك لا إله إلاّ هو وأعرض عن المشركين . ولو شاء الله ما اشركوا . وما جعلناك عليهم حفيظًا ، وما أنت عليهم بوكيل ﴾ .

تجاه إصرار المشركين على الشّرك والإعراض عن القرآن الكريم تأمر الآية الكريمة الأولى المصطفى ﷺ أن يتّبع ما أوحى إليه ربّه جلّ وعلا . وإذا كان المصطفى ﷺ يأمره ربّه جلّ وعلا بالاتّباع فمن باب الأَوْلى والأحرى ان ينسحب الأمر على كلّ فردٍ من أفراد الأمّة الإسلاميّة . ولمّا كان الاتّباع يخالفه الابتداع فكأنّ الأمر بالاتّباع نهيٌ عن الابتداع فقد أكمل الله تعالى الدّين ورضيه لنا وأتمّ به النّعمة علينا . وإنّ المصطفى ﷺ يؤمر بأن يتّبع ما أوحاه إليه ربّه جلّ وعلا ، وبذلك تعيّن الآية الكريمة مصدر الوحي ، إنّه السّماء . والمعروف أنّ الله سبحانه وتعالى قد آتى المصطفى ﷺ القرآن ومثله معه يعنى السّنّة كما جاء فى الحديث الصّحيح عن الصّادق المصدوق ﷺ[1] وحينما يكون لفظ الرّبّ فى القرآن الكريم إنّما يجيء فى مواقف الخصوص والرّضا والتّنبيه إلى نعم الله تعالى ووجوب القيام بالشّكر لله تعالى عليها يكون فى مجيء لفظ الرّب الّذى لحق به ضمير المخاطب العائد للمصطفى ﷺ تأكيدٌ لفحوى التّسلية فى الآية الكريمة وتثبيت فؤاده عليه الصّلاة والسّلام ، مع العلم بأنّ ضمير المخاطب ذاته جاء قبل ذلك فى الجارّ والمجرور ﴿ إليك ﴾ . قال تعالى : ﴿ اتّبع ما أوحي إليك من ربّك ﴾ .

إنّ على المسلمين أن يعوا هذه المعاني جيّدًا وأن يعلموا أنّهم مأمورون بالاتّباع ومنهيّون عن الابتداع ، وقد جاء فى هذا المعنى قوله عزّ من قائل فى سورة

---

(١) انظر هنا مثلاً مفتاح الجنّة فى الاحتجاج بالسّنّة للسّيوطى ص ١١ و٢٠ و٢١ و٢٥ و٥٤ .

النّساء[1] : ﴿ يا ايّها الّذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرّسول وأولى الأمر منكم . فإن تنازعتم فى شيءٍ فردّوه إلى الله والرّسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خيرٌ وأحسن تأويلا ﴾ قالوا : الرّدّ إلى الله : إلى كتابه . والرّدّ إلى الرّسول ﷺ إذا قبض : إلى سنّته[2] .

وتأكيدًا للجهة الواحدة الّتى لا يكون الاتّباع إلاّ لها يجىء القول : ﴿ لا إله إلاّ هو ﴾ إنّه لا إله معبودًا بحقٍّ إلاّ الله تعالى .

ولمّا كان اتّباع وحي الله تعالى يعنى الإعراض عن المشركين ، ولمّا كان التّوحيد يعنى طرد الشّرك كان فى الجزئيّة الكريمة الأخيرة : ﴿ وأعرض عن المشركين ﴾ تأكيدٌ لهذه المعاني وتصريحٌ بها . ومن البدهيّ أنّ الاتّباع نوعٌ من الإقبال وأنّ الإعراض نوعٌ من الإدبار . فثمّة أمرٌ بالتّوحيد ونهيٌ عن الشّرك . ومن البدهيّ كذلك أنّ الأمر للرّسول ﷺ أمرٌ ضمنيٌ لكلّ فردٍ من أفراد أمّته عليه الصّلاة والسّلام .

ولمّا كانت الآية الكريمة تقصد إلى تثبيت فؤاده ﷺ فإنّ الآية الكريم التّالية تؤكّد هذا المعنى .

وأوّل ما يلاحظ بشأن القول : ﴿ ولو شاء الله ما أشركوا ﴾ اشتماله على لفظ الجلالة : ﴿ الله ﴾ الّذى يجىء فى القرآن الكريم فى مناسبات العموم . ويبدو هذا المعنى واضحًا بالنّظر إلى لفظ الرّبّ فى الآية الكريمة السّابقة . إنّ المصطفى ﷺ يكاد يموت حزنًا بسبب إعراض المشركين عن دعوته عليه الصّلاة والسّلام . ولمّا كان كلّ ما يحدث فى الوجود إنّما يحدث بعلم الله تعالى ، وقد سبق إلى علمه جلّ وعلا موقف المشركين من الإسلام الّذى بعث به خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين فقد جاء القول : ﴿ ولو شاء الله ما أشركوا ﴾ إنّ الله سبحانه وتعالى لو شاء أن يجعل النّاس جميعًا أتباع نبيٍّ واحدٍ لفعل ، ولو شاء أن يجعل النّاس جميعًا موحّدين غير

---

(١) سورة النّساء ٥٩ .

(٢) مفتاح الجنّة فى الاحتجاج بالسّنّة ٢٠ .

مشركين لفعل . إنّ الله سبحانه وتعالى شاء أن يختبر عباده فزوّدهم بالملكات الّتى تهيّئهم لحمل الأمانة وأرسل إليهم رسله الّذين هدوهم إلى الصّراط المستقيم وبيّنوا لهم طريق الخير كي يسلكوه وطريق الشّرّ كي يجتنبوه . إنّ مهمّة الرّسل تقف بإرادة الله تعالى عند البلاغ وحده ، وإنّ اعتناق الإسلام أو البقاء على الشّرك مسئوليّة كلّ إنسان وسيثاب يوم القيامة على إسلامه أو يعاقب على شركه . وهكذا استحبّ الضّالّون العمى على الهدى ، وهكذا تورّطوا فى الشّرك بمحض إرادتهم ، وهكذا زادهم الله تعالى إلى عماهم عمى فى الدّنيا والآخرة وقد قال تعالى[1] : ﴿ ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضلّ سبيلا ﴾ وقال تعالى[2] : ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإنّ له معيشةً ضنكًا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال ربّ لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرًا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنْسَى ﴾ .

ونستطيع أن نتبيّن أنّ هذا القول : ﴿ ولو شاء الله ما أشركوا ﴾ بمثابة التّوطئة للخطاب الصّريح بعد ذلك للمصطفى ﷺ : ﴿ وما جعلناك عليهم حفيظًا . وما أنت عليهم بوكيل ﴾ وإنّ القول هنا : ﴿ وما جعلناك عليهم حفيظًا ﴾ يصحّ أن يكون امتدادًا لمعنى القول على لسان المصطفى ﷺ فى الآية الكريمة الرّابعة بعد المائة: ﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ إنّ المصطفى ﷺ يؤمر بأن يقول للمشركين : ﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ وإنّ ربّ العزّة يخاطب هنا المصطفى ﷺ بالقول : ﴿ وما جعلناك عليهم حفيظا ﴾ ومن معاني الحفظ التّفقد والتّعهّد والرّعاية[3] فكأنّ الحفيظ بمعنى الرّقيب[4] وكأنّ حرف الجرّ ﴿ على ﴾ الّذى يفيد الاستعلاء قد زاد الحفظ قوّةً إلى قوّته .

---

(١) سورة الإسراء ٧٢ . (٢) سورة طه ١٢٤ - ١٢٦ .

(٣) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « حفظ » ١٢٤ .

(٤) تفسير ابن كثير ١٦٢/٢ .

فلنقارن بين القول : ﴿ وما جعلناك عليهم حفيظًا ﴾ وبين القول : ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ وهذا يقتضينا معرفة معنى الوكيل بعد أن عرفنا معنى الحفيظ . إنّ التّوكيل هو أن تعتمد على غيرك وتجعله نائبًا عنك . والوكيل فعيل بمعنى المفعول . قال تعالى : وكفى بالله وكيلا . أي اكتف به أن يتولّى أمرك ويتوكّل لك[1] إنّ الوكيل بمعنى متولّى أمر موكله نيابةً عنه .

من المقارنة بين الحفيظ والوكيل يتبيّن أنّ الحفيظ أقوى فى الدّلالة على الحفظ والتّعهّد والرّعاية ، وأنّ الحفيظ لا يشترط رضا المحفوظ أو استئذانه . وإنّ لحرف الاستعلاء ﴿ على ﴾ قوّةً فى تأكيد هذه المعاني . ومن المقارنة يتبيّن كذلك أنّ الوكيل يصحّ أن يكون للموكل رأيٌ فى وكالته وإنفاذها ، ويصحّ ألاّ يكون ، خاصّةً فى حالة القاصر وذلك على غرار المشركين الّذين يجهلون مصلحتهم . ولمّا كان من حقّ وليّ الأمر أن يعيّن الوكيل وكان ربّ العزّة لم يعيّن المصطفى ﷺ وكيلاً على القوم فقد جاء القول فى جملة اسميّة تفيد الدّوام والرّسوخ : ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ وقد أكّد حرف الجرّ « الباء » نفي الوكالة ، كما رفع حرف الجرّ ﴿ على ﴾ من مستوى هذه الوكالة الّتى عرفنا معناها إلى مستوىً غير بعيدٍ من الحفظ . وهكذا يتبيّن التّدرّج فى المعاني والاتّجاه المستمرّ نزولاً من نفي مشيئة الذّات العليّة عدم الإشراك ، إلى نفي الحفظ على القوم ، إلى نفي التّوكيل عليهم .

وكما وجّه السّياق المصطفى ﷺ وجّه المؤمنين وذلك فى الآية الكريمة التّالية فإلى.

الآيـــة رقـــم (١٠٨)

قال تعالى : ﴿ ولا تسبّوا الّذين يدعون من دون الله فيسبّوا الله عدوًا بغير علم . كذلك زيّنّا لكلّ أمّةٍ عملهم ثمّ إلى ربّهم مرجعهم فينبّئهم بما كانوا يعملون ﴾ .

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « وكل » ٥٣١.

السّبّ : الشّتم الوجيع[1] إنّ الآية الكريمة تنهى الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم عن شتم الآلهة المعبودة من دون الله تعالى الّتى لا تملك لنفسها فضلاً عن غيرها ضرّاً ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورا . وإنّ النّهي عن سبّ معبودات المشركين ماضٍ إلى يوم الدّين . وتبيّن الآية الكريمة السّبب فى النّهي عن شتم أصنام المشركين وأوثانهم ومعبوداتهم الزّائفة . إنّ هؤلاء المشركين لا يعقلون ولا يعلمون الهدف الّذى خلقهم الله تعالى من أجله وهو عبادته جلّ وعلا وحده لا شريك له . وحينما لا يكون ثمّة علمٌ يكون ثمّة جهل ، وحينما لا يكون ثمّة عقلٌ يكون ثمّة سفه . وبذلك يكون جهل المشركين مركّبًا . إنّهم يتّسمون بالجهل ضدّ العلم وضدّ الحلم . وما الّذى يُنْتَظَر من الجاهل الأحمق حينما يسمع شتم إلهه الّذى يعبده وإن كان مصنوعًا من عجوةٍ يزدردها ازدرادًا إذا جاع وإن كان مصنوعًا من إحدى الأثافى ؟ أن يتمكّن منه الغضب وأن يهرف بما لا يعرف وأن يبادل شتم إلهه الزّائف بشتم الإله الحقّ ظلمًا وعدوانا . إنّ هذا المشرك الجاهل الأحمق لو كان يعرف ما يضرّه وما ينفعه لما عبد الإله المزعوم ولتخلّى عن الشّرك واعتنق التّوحيد . إنّ المطلوب من المسلم فى كلّ زمانٍ ومكان الاّ يثير ثائرة المشركين بشتم آلهتهم وسبّها ﴿ فيسبّوا الله عَدْوًا بغير علم ﴾ .

والآية الكريمة تبيّن بعد ذلك مشيئة الله تعالى الّتى اقتضت أن تزيّن لهؤلاء المشركين شركهم ودفاعهم المستميت عنه كما زيّن الله سبحانه وتعالى لكلّ أمّةٍ من الأمم السّابقة عملهم ويوم يرجعون إليه تعالى بعد الموت والبعث ينبّئهم بما كانوا يعملون من خيرٍ يثابون عليه أو شرّ يعاقبون عليه . قال تعالى : ﴿ كذلك زيّنا لكلّ أمّةٍ عملهم ثمّ إلى ربّهم مرجعهم فينبّئهم بما كانوا يعملون ﴾ .

ونستطيع أن نتبيّن رحمة البرّ الرّحيم بعباده من استعمال حرف العطف : ﴿ ثمّ ﴾ الّذى يدلّ على التّرتيب مع التّراخي . إنّ الله سبحانه وتعالى يمهل المشركين

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « سبّ » ٢٢٠ .

ويأخذهم بالبأساء والضرّاء لعلّهم يتضرّعون ويفتح لهم ابواب كلّ شيءٍ حتّى إذا فهموا الإمهال بأنّه إهمالٌ أخذهم الله تعالى أخذ عزيزٍ مقتدر .

ونستطيع كذلك أن نتبيّن رحمة البرّ الرّحيم بعباده من مجيء لفظ الرّبّ المتّصل به ضمير جماعة الغائبين العائد إلى تلك الأمم الماضية وفيهم الصّالحون وفيهم الطّالحون . إنّ الرّبّ البرّ الرّءوف الرّحيم هو مربّى جميع خلقه بنعمه وآلائه وفيهم المشركون فعليهم جميعًا أن يقدروا هذه النّعم وأن يقوموا بالشّكر عليها بإفراد الله تعالى بالعبادة وإلاّ كان الأخذ اليمًا شديدا .

والعجيب فى أمر المشركين أنّهم يصرّون على طلب المعجزات الحسّيّة الّتى تقلّ عن القرآن الكريم إقناعًا وهم أمّة البيان مع إجابتهم مرّاتٍ عدّة برفض طلبهم لأنّهم لن يؤمنوا وفى ذلك هلاكهم ، واللّطيف فى أمر المؤمنين أنّهم يعلمون هذه الحكمة الّتى يصرّ الكافرون على تجاهلها ، وإنّ الآية الكريمة التّالية تتحدّث فى هذه المعاني فإلى .

الآيـــة رقـــم (١٠٩)

قال تعالى : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آيةٌ ليؤمننّ بها . قل إنّما الآيات عند الله وما يشعركم أنّها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ .

أقسم كفّار مكّة بالله العظيم غاية وسعهم ومنتهى طاقتهم لئن جاءتهم آيةٌ غير القرآن الكريم ، ووصلت إليهم معجزة سوى معجزة الكتاب العزيز ، ليؤمننّ بها ، وليتّبعنّ الرّسول الكريم ، وليعتنقنّ دين الإسلام العظيم . وتأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يقول لكفّار مكّة إنّ الآيات عند الله تعالى وحده لا شريك له ، فلا يملك عليه الصّلاة والسّلام إنزال آيةٍ منها . إنّه جلّ وعلا هو الّذى جعل معجزة القرآن الكريم البيانيّة آيةً تحدّى بها العرب أئمّة البيان وأرباب الفصاحة . وإنّه جلّ

وعلا هو الّذى اقتضت حكمته أي يستأصل شأفة المكذّبين بعد تحقيق الآية أو الايات الّتى اقترحوا . وإنّه جلّ وعلا هو الّذى لم يشأ استئصال شأفة كفّار مكّة الّذين سبق علمه جلّ وعلا إلى أنّهم سيصرّون على الكفر بعد تحقيق الآيات ، لذا لم يُلبِّ جلّ وعلا طلبات كفّار مكّة بشأن الآية أو الآيات المقترحة .

ولا يكاد ينتهى العجب من كفّار مكّة الّذين يصرّون على حتفهم . واللّطيف فى الأمر أنّ المؤمنين قد أدركوا الحكمة الّتى تجاهلها كفّار مكّة المصرّون على طلب الآيات ، وها هي ذى الآية الكريمة تسأل المؤمنين : ﴿ وما يشعركم أنّها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ والمعنى وما يشعركم ايّها المؤمنون أنّ الآية المقترحة إذا جاءت فعلاً وتحقّقت لا يؤمن بها الكافرون ولا يصدّقها المشركون . إنّ الّذى أشعر المؤمنين بهذه الحقائق الّتى كانت قريبةً منهم قرب الشِّعار من الثّياب ، اللّاصق بالشّعر من الجسد ، هو الله تعالى علاّم الغيوب . وإنّ الآية الكريمة التّالية تقول بهذه الحقيقة فإلى.

الآيـــة رقـــم (١١٠)

قال تعالى : ﴿ ونقلّب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أوّل مرّةٍ ونذرهم فى طغيانهم يعمهون ﴾ .

إنّ الله سبحانه وتعالى هو مقلّب القلوب المتقلّبة بطبعها ، وإنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذى يحول بين المرء وقلبه ، فلا يكون إيمانٌ ولا كفرٌ إلاّ بعلم الله تعالى وإذنه ، وإنّ الله سبحانه وتعالى كما يقلّب أفئدة المشركين يقلّب أبصارهم ويصرفها كما يشاء ويوجّهها كما يريد . ولمّا كان المشركون لم يؤمنوا بالقرآن الكريم حين سماعهم تلاوته أوّل مرّة بسبب صرفهم قلوبهم عنه وقد زادها الله تعالى انصرافًا فإنّ هذا الموقف ذاته من القرآن الكريم سيكون من نصيب القوم بعد تحقّق الآية المقترحة. إنّهم سوف ينصرفون عن القرآن الكريم فى المرّة الثّانية أيضًا وسيزيد الله

تعالى تلك القلوب انصرافاً إلى انصرافها . وإنّ لسان حال الآية الكريمة يقول إنّ القوم بعد إصرارهم على الكفر وصرف قلوبهم عن القرآن الكريم سيأخذهم الله تعالى أخذ عزيزٍ مقتدر وسيستأصل شأفتهم أسوةً بالمكذّبين السّابقين باستثناء قوم يونس عليه السّلام الّذين قبل الله تعالى توبتهم وكشف عنهم العذاب آخر لحظة . والآية الكريمة التّالية بمثابة التّفصيل لما أجملت الآية الكريمة السّابقة من آياتٍ طلب الكافرون من المصطفى ﷺ تحقيقها كي يؤمنوا وكذبوا فإلى .

الآيـــة رقـــم (١١١)

قال تعالى : ﴿ ولو أنّنا نزّلنا إليهم الملائكة وكلّمهم الموتى وحشرنا عليهم كلّ شيءٍ قُبُلاً ما كانوا ليؤمنوا إلاّ ان يشاء الله ولكنّ أكثرهم يجهلون ﴾ .

تقرّر الآية الكريمة أنّ ربّ العزّة لو نزّل إلى كفّار مكّة الملائكة بناءً على طلبهم ورأوهم عِيانًا دليلاً على أنّه ﷺ رسول ربّ العالمين ، ولو أنّ ربّ العزّة أحيا الموتى للغاية ذاتها فكلّموا كفّار مكّة شِفاهًا ، ولو أنّ ربّ العزّة حشر على كفّار مكّة كلّ شيءٍ جماعةً ، وجمعهم في صعيدٍ واحدٍ ، ورأوهم عِيانًا دليلاً على إرسال الله تعالى خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين ، لو أنّ ربّ العزّة فعل كلّ ذلك ، وليس فقط ما طلب كفّار مكّة من آياتٍ محسوسةٍ ماديّة ، ولم يشأ الله تعالى لهم الهداية ، فإنّهم لن يؤمنوا . إنّ الهداية تتمّ حينما يريد الله تعالى وليس بتحقيق ما طلب الكفّار من آياتٍ ولكنّ أكثر الكافرين يجهلون هذه الحقيقة ويظنّون أنّ الهداية بمشيئتهم ولهذا هم يقترحون الآيات . وبما أنّ كفّار مكّة لم يؤمنوا بالمعجزة البيانيّة الكبرى الّتي تلائمهم بأكثر من غيرها وهم أئمّة البيان فكأنّ لسان حال الآية الكريمة يؤكّد لكفّار مكّة أنّ المشيئة لله تعالى وحده لا شريك له بدليل أنّهم لم يؤمنوا بالقرآن الكريم لأنّ الله تعالى لم يشأ لهم الإيمان نتيجةً أكيدةً وثمرةً نكدة لانصرافهم عن

الهدى وإعراضهم عن الحقّ . وإنّ المنصرفين عن القرآن وعن الإيمان أوّل مرّةٍ أخلق بالانصراف عن الآيات المحسوسة وعن الإيمان آخر مرّة . وإنّما كان إعراض الكافرين عن الحقّ كلّ مرّة بسبب استجابتهم لما يوحى به إليهم الشّياطين من زخرف القول وغروره ، شياطين الجنّ في المقام الأوّل . وإلى هذه المعاني نبّهت الآية الكريمة التّالية فإلى .

الآيـــة رقـــم (١١٢)

قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكلّ نبيٍّ عدوًّا شياطين الإنس والجنّ يوحى بعضهم إلى بعضٍ زخرف القول غرورًا . ولو شاء ربّك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ﴾ .

إنّ كفّار مكّة حينما انصرفوا عن دعوة الحقّ صرف الله تعالى قلوبهم فلم يستجيبوا للقرآن الكريم . وإنّهم لن يستجيبوا لنداء الإيمان حتّى مع تحقّق سلسلة المعجزات المؤلّفة من ثلاث حلقات مستحيلات هي نزول الملائكة وتكليم الملائكة كفّار مكّة وحشر كلّ شيءٍ في صعيدٍ واحدٍ لكفّار مكّة كي يؤمنوا . وما معنى إعراض كفّار مكّة عن الحقّ ؟ معناه إقبالهم على الباطل وانسياقهم وراء الشّيطان الرّجيم في وعوده المعسولة . وإنّ الآية الكريمة بقصد تسلية المصطفى ﷺ تقول له ﷺ : وكما جعلنا لك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم أعداءً يعاندونك جعلنا لكلّ نبيٍّ من الأنبياء السّابقين أعداءً من شياطين الإنس والجنّ يوحى بعضهم إلى بعضٍ زخرف القول غرورًا . إنّ النّفس الأمّارة بالسّوء تأمر الكافرين بأن يعصوا الرّسول الكريم فيعصوه وفي المقابل هي تأمرهم بأن يستجيبوا لنداء اللّعين وإغراءاته فيطيعوه . وهكذا يتحوّل أعداء الله تعالى من الإنسانيّة إلى الشّيطانيّة بتضليلٍ من النّفس الأمّارة بالسّوء وباستجابةٍ لإغراءات الشّيطان الرّجيم وتزيينه للباطل وتقبيحه للحقّ . ولا يقف الكافرون عند مرحلة التّفاعل مع زخرف القول من الشّيطان الرّجيم وكلامه المزيّن بالباطل المزوّق بالخداع ومع وعوده الكاذبة وأمانيه المعسولة

إنّما يتجاوزون ذلك إلى المشاركة الإيجابيّة والإدلاء بالآراء الشّيطانيّة والطّرح للاقتراحات الإبليسيّة . ولمّا كانت آراء شياطين الإنس والجنّ الإبليسيّة من الخبث والمكر والكيد في أحطّ الدّركات فقد نزّلتها الآية الكريمة منزلة الوحي الّذي يوحَى به لمتلقّيه الّذي يجهل مصدره وموعده . إنّ شياطين الإنس تنزل آراؤهم الإبليسيّة من شياطين الجنّ منزلة الوحي الّذي يُجْهل مصدره ، والإلهام الّذي لا يُعْرف موعده . وإنّ شياطين الجنّ تنزل آراؤهم الإبليسيّة من شياطين الإنس المنزل نفسه وتقع من نفوسهم الموقع ذاته . وليس وراء تلك الآراء من معنى ، ولا لتلك الوعود من طائل، ولا لتلك الأماني من واقع . إنّ القول مزخرفٌ بالباطل ، وإنّ الوعود مموّهةٌ بالكذب ، وإنّ الأمانيّ معجونةٌ بالغرور ، ملفوفةٌ بالهراء ، مطبوخةٌ بالافتراء .

إنّ هذه الأحوال السّيّئة هي الّتي كانت نصيبًا لأعداء كلّ نبيٍّ من أنبياء الله تعالى. هذه هي مشيئة الله تعالى وهذه هي حكمته . ومن البيّن أنّنا بصدد درسٍ بليغٍ للدّعاة إلى الله تعالى . إنّ عداوة شياطين الإنس والجنّ لأنبياء الله تعالى من حكمه جلّ وعلا البالغة ، فعلى الدّعاة إلى الله تعالى أن يوطّنوا أنفسهم على مثل هذا النّوع من البلاء . ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تستعمل لفظ النّبيّ دليلاً على حظّ الرّسول المماثل من البلاء أو الأكثر لأنّ درجة النّبوّة هي الطّريق الوحيد المؤدّى إلى درجة الرّسالة ، فكلّ رسولٍ نبيّ ولا ينعكس . إنّ النّبيّ حينما يكون من نصيبه هذا الكمّ من البلاء يكون مثل هذا الكمّ أو أكثر منه للرّسول من باب الأولى والأحرى . لقد شاءت إرادة الله تعالى أن يكون أكثر النّاس بلاءً الأمثل فالأمثل والأفضل فالأفضل. وفي ضوء الآية الكريمة التّاسعة والسّتّين من سورة النّساء نستطيع أن نرتّب عباد الله تعالى وفق تفضيل الله تعالى لهم على النّحو التّالي . إنّهم المرسلون ، فالنّبيّون ، فالصّدّيقون ، فالشّهداء ، فالصّالحون . قال تعالى : ﴿ ومن يطع الله والرّسول فأولئك مع الّذين أنعم الله عليهم من النّبيّين والصّدّيقين والشّهداء والصّالحين . وحسن أولئك رفيقا ﴾ .

وإذا كان تثبيت فؤاد المصطفى ﷺ مفهومًا فى صدر الآية الكريمة فإنّه منطوقٌ به فى التّذييل . قال تعالى : ﴿ ولو شاء ربّك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ﴾ . ومن البيّن أنّ سورة الأنعام مكّيّة ، وقد نزل الإذن بالقتال بعد الهجرة إلى المدينة المنوّرة . ويُفْهَم من الجزئيّة الكريمة أنّ ما أتاه المشركون تمّ بعلم الله تعالى وإرادته . وينبغى أن يكون للقول خطابًا له ﷺ : ﴿ ربّك ﴾ كبير الأثر فى تثبيت فؤاده ﷺ بناءً على استعمال القرآن الكريم لفظ الرّبّ فى مجال الخصوص وفى مجال التّنبيه إلى التّربية الموصولة من الله تعالى لعباده وتنشئتهم بنعمه وآلائه . وأمّا إهمال المشركين المفهوم من القول خطابًا له ﷺ : ﴿ فذرهم وما يفترون ﴾ فإنّ المراد وراءه تهديد القوم الّذين وهموا أنّ الإمهال إهمال . وإذا كان الافتراء يعنى كذب القول فى المقام الأوّل فإنّ الآية الكريمة التّالية تبيّن أبعاد ضلال القوم فإلى .

الآيــــة رقـــم (١١٣)

قال تعالى : ﴿ ولِتَصْغَى إليه أفئدة الّذين لا يؤمنون بالآخرة ولِيَرْضَوه ولِيَقْتَرِفوا ما هم مقترفون ﴾ .

ولتصغى : المصدر المؤوّل : أن تصغى فى محلّ جرّ باللّام متعلّق بفعل يوحى فى الآية الكريمة السّابقة ، لأنّه معطوفٌ على ﴿ غرورًا ﴾ بالمعنى فكلاهما مفعولٌ لأجله العامل فيه يوحى[1] « والصّغو : الميل ، يقال : صغت النّجوم والشّمس صَغْوًا مالت للغروب .... وأصغيت إلى فلان ملت بسمعى نحوه »[2] والأفئدة جمع الفؤاد. والفؤاد كالقلب لكن يقال له فؤادٌ إذا اعتُبِرَ فيه معنى التّفؤّد أي التّوقّد ، يقال : فأدت اللّحم شويته ولحمٌ فئيدٌ مشويّ[3] الفاء والألف والدّال هذا أصلٌ صحيحٌ يدلّ

(١) انظر الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٢١١/٤ .
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : «صغا» ٢٨٢ وانظر معجم مقاييس اللّغة : «صغوي» ٢٨٩/٣ .
(٣) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « فأد » ٣٨٦/٤

على حُمَّى وشِدّة حرارة . وممّا هو من قياس الباب الفؤاد ، سمّي بذلك لحرارته[١] والقاف والرّاء والفاء أصلٌ صحيحٌ يدلّ على مخالطَةِ الشّيء والالتباس به وادّراعه[٢] واصل القَرْف والاقتراف قَشْر اللّحاء عن الشّجر والجلدة عن الجَرْح ، وما يؤخَذُ منه قِرْف . واستعير الاقتراف للاكتساب حسنًا كان أو سوءًا . والاقتراف في الإساءة أكثر استعمالاً . ولهذا يقال : الاعتراف يزيل الاقتراف . وقَرَفْت فلانًا بكذا إذا عبتُه به أو اتّهمته[٣] .

إنّ كفّار مكّة ومن شاكلهم من أعداء الله تعالى وأعداء النّبيّين لا يكتفون بإيحاء بعضهم إلى بعضٍ زخرف القول المموّه بالباطل لخداع الغُمْر وتضليل الغُفل ، ولا يقفون عند افتراء الكذب واختراع الباطل إنّما يتجاوزون ذلك الدّرك إلى الإصغاء لتلك الأباطيل ليس بآذانهم فحسب ، بل بقلوبهم ، بل بأفئدتهم المنجذبة لتلك الأباطيل المنفعلة بتلك الأكاذيب ، بل الأفئدة الّتي تكاد لقوّة التّفاعل مع تلك الأباطيل تحمى وتتّقد ، ولفرط حرارة التّجاذب مع تلك الافتراءات تلين وتذوب . وإنّما كان من أفئدة المشركين كلّ ذلك الهيام بالتّفاهات لأنّهم لا يؤمنون بالآخرة ولا يخافون يوم الحساب ، ولأنّهم يعتبرون الحياة الدّنيا غاية المنى ومنتهى الطّلب .

وكانت الثّمرة النّكدة لتعلّق أفئدة المشركين بزخرف القول وغرور الباطل أن رضيت نفوسهم به ، وائتمرت بأوامره بفعل المنكر وهجر المعروف ، وها هم أولاء يقترفون ما لا يخفى من المنكرات ويأتون ما لا يأتيه إلاّ المشرك من الآثام .

وهكذا ينحطّ المشركون من درك إلى درك . إنّهم يوحى بعضهم إلى بعضٍ زخرف القول وغرور الباطل ، وهم يتلذّذون بافتراء الكذب ، وهم تذوب أفئدتهم فيما يوحى إليهم به الشّياطين الآخرون من أكاذيب وأباطيل ، وهم يرضون عن كلّ

---

(١) انظر معجم مقاييس اللّغة : « فأد » ٤٦٩/٤ .
(٢) معجم مقاييس اللّغة : « قرف » ٧٣/٥ .
(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « قرف » ٤٠١ .

ذلك كلّ الرّضا ، وهم يحوّلون أسوأ ما يشعرون ويسمعون ويقولون إلى أحطّ الأعمال وأخبث الأفعال . وهم وراء كلّ ذلك لا يريدون أن يقفوا عند حدّ . وإلى ذلك نبّهت الآية الكريمة التّالية فإلى .

الآيــــة رقــــم (١١٤)

قال تعالى : ﴿ أفغير الله أبتغى حكمًا وهو الّذى أنزل إليكم الكتاب مفصّلاً . والّذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنّه منزّلٌ من ربّك بالحقّ فلا تكوننّ من الممترين ﴾ .

العجيب فى أمر كفّار مكّة أنهم طلبوا من المصطفى ﷺ أن يحتكم معهم إلى حكمٍ من البشر وإلى قاضٍ من بنى آدم ليحكم بينه وبينهم ويقضي فيما أرسله الله تعالى به من دين الإسلام وأوحى به إليه من القرآن خير الكلام ! وما معنى الاحتكام إلى واحدٍ من عباد الله تعالى ؟ ابتغاء غير الله تعالى حكمًا ! وفى أيّ موضوع ؟ فى الكتاب العزيز الّذى أنزله الله تعالى آياتٍ مفصّلاتٍ من أجل إخراج النّاس من ظلمات الشّرك والجهل إلى نور الإيمان والعلم . وإذا كان المصطفى ﷺ خير خلق الله تعالى كلّهم ما كان يدرى ما الكتاب ولا الإيمان حتّى أنزل الله تعالى عليه القرآن الكريم واصطفاه بنعمة الرّسالة وختم النّبوّة فمن هو ذلك الشّخص الّذى يريد كفّار مكّة أن يحتكموا إليه كي يصدر حكمه فيما بينهم وبين المصطفى ﷺ من خلاف ؟ وبشأن الخلاف هنا هل يستطيع أيّ مخلوق مجرّد التّفكير فيه فضلاً عن إصدار حكمٍ فى حقّه ؟

وتجاه حمق كفّار مكّة وجهلهم الّذى ليس وراءه جهل ، وبناءً على علاقتهم الوثيقة ببنى إسرائيل أهل الكتاب تتحوّل الآية الكريمة إلى بنى إسرائيل الأصدقاء الحميمين للقرشيّين وموضع ثقتهم وعَيْبة(١) نصحهم فتقرّر علمهم بأنّ القرآن الكريم منزّلٌ من ربّ محمّد ﷺ بالحقّ : ﴿ والّذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنّه منزّلٌ من ربّك بالحقّ فلا تكوننّ من الممترين ﴾ .

---

(١) العَيْبة : ما تُجعل فيه الثّياب كالصُّندوق . وعيبة النّصح : موضع السّرّ والثّقة .

ويلاحظ أنّ السّياق في الآية الكريمة ينصرف عن كفّار قريش انصرافًا تامًّا على استواء الاهتمام بهم والإهمال لهم ، ويتحوّل إلى الفريق من البشر الّذين لديهم أثارةٌ[1] من علمٍ سماويّ وهم بنو إسرائيل الّذين يجدون في التّوراة المصطفى ﷺ مكتوبًا عندهم نعته ، كما يتحوّل إلى المصطفى ﷺ ذاته فينهاه أن يكون من الممترين الشّاكّين فيما أوحى الله تعالى إليه من كتابٍ عزيزٍ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد . وليس وراء مثل هذا الإعراض عن كفّار مكّة وإهمالهم احتقارٌ ولا ازدراء . إنّ التّحوّل في الحديث تمّ أوّلاً إلى أهل الكتاب السّماويّ ، فثمّة تحوّل إلى وحي . وإنّ التّحوّل آخرًا تمّ إلى المصطفى ﷺ الّذي كان آنذاك بمكّة يعاني من كفّار قريش ويتلقّى الوحي . إنّ المصطفى ﷺ بحاجةٍ دائمة إلى تثبيت فؤاده عليه الصّلاة والسّلام . وإنّ من حكم تنزيل القرآن الكريم مفرّقًا حكمة التّثبيت الّتي نصّ عليها قوله عزّ من قائل[2] : ﴿ وقال الّذين كفروا لولا نزّل عليه القرآن جملةً واحدةً . كذلك لنثبّت به فؤادك ورتّلناه ترتيلا ﴾ ولمّا كان القرآن الكريم محور حديث الآية الكريمة وقد طُلِب إليه ﷺ ألاّ يكون من الشّاكّين في القرآن الكريم فقد بيّنت الآية الكريمة التّالية بعض نعوت القرآن الكريم الّتي تنفي عنه الرّيب عمومًا فإلى .

الآيـــة رقـــم (١١٥)

قال تعالى : ﴿ وتمّت كلمة ربّك صدقًا وعدلاً لا مبدّل لكلماته وهو السّميع العليم ﴾ .

إنّ أوّل ما يلفت الانتباه مجيء القول خطابًا للمصطفى ﷺ : ﴿ ربّك ﴾ الّذي جاء في الآية الكريمة السّابقة تنبيهًا إلى الرّعاية الدّائمة من الله تعالى لحبيبه المصطفى

---

(١) الأثارة : البقيّة .

(٢) سورة الفرقان ٣٢ .

ﷺ . وبشأن جملة : ﴿ وتمّت ﴾ هي تقذف إلى الأذهان بالتّمام والكمال فى مثل قوله عزّ من قائل[١] : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ وفى مثل قوله تعالى[٢] : ﴿ والوالدات يرضعن أولادهنّ حولين كاملين ﴾ وفى ضوء دراسة جملتي كمل وتمّ نستطيع أن نتبيّن أنّ الكمال تمامٌ يقصد به نفي النّقص وطرده بين يدي التّمام ومن خلفه ، وأنّ التّمام انتهاءٌ إلى الكمال بعد نقص[٣] .

بناءً على ما سبق يكون معنى القول : ﴿ وتمّت كلمة ربّك صدقًا وعدلاً ﴾ وتمّت كلمة ربّك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم بنزول آي القرآن الكريم وسوره تباعًا صدقًا فى الأقوال والأخبار وعدلاً فى الأحكام . وحينما يكون من صفات القرآن الكريم الّذى أنزله الله تعالى بالحقّ وبالحقّ نزل الصّدق فى الأقوال والأخبار والعدل فى الأحكام يكون فى القول بعد ذلك فى الآية الكريمة : ﴿ لا مبدّل لكلماته ﴾ التّأكيد على حفظ الله تعالى هذا الكتاب العزيز إلى يوم الدّين وعلى إعجازه فى إنبائه بالغيب . وبذلك تأخذ الآية الكريمة بسبب بالكثير من آي الذّكر الحكيم فى هذه المعاني ومنها قوله تعالى[٤] : ﴿ إنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون ﴾ وقوله تعالى[٥] : ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجرٍ وما أنا من المتكلّفين . إن هو إلاّ ذكرٌ للعالمين . ولتعلمنّ نبأه بعد حين ﴾ .

وحينما يكون الصّدق متعلّقًا بأقوال القرآن الكريم وأخباره وقد نزل القرآن الكريم على لسان جبريل عليه السّلام وقد سمع المصطفى ﷺ منه القرآن الكريم ، وسمع المؤمنون القرآن الكريم منه ﷺ يتّضح معنى صفة السّمع ومرماها فى حقّ الذّات العليّة فى القول : ﴿ وهو السّميع ﴾ .

---

(١) سورة المائدة ٣ . (٢) سورة البقرة ٢٣٣ .

(٣) سجّلت هذه النّتيجة مثلاً ص ٢٠ من مجلّة المنهل العدد ٥٠١ رجب ١٤١٣ هـ تحت دراسة بعنوان « من آيات الأحكام . آيةٌ وإعجاز » للمؤلّف .

(٤) سورة الحجر ٩ . (٥) سورة ص ٨٦ - ٨٨ .

وحينما يكون العدل متعلّقًا بأحكام القرآن الكريم إضافةً إلى الصّدق فى أقواله يتضح معنى صفة العلم فى حقّ الذّات العليّة فى القول : ﴿ وهو السّميع العليم ﴾ .

وحينما لا يتّبع كفّار مكّة الحقّ يتّبعون الضّلال وقد قال تعالى[1] : ﴿ فذلكم الله ربّكم الحقّ فماذا بعد الحقّ إلاّ الضّلال فأنّى تُصْرَفون ﴾ وحول هذه المعاني تحدّثت.

الآيتان رقم (١١٦ و١١٧)

قال تعالى : ﴿ وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلّوك عن سبيل الله . إن يتّبعون إلاّ الظّنّ وإن هم إلاّ يخرصون . إنّ ربّك هو أعلم من يضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ .

إنّ أكثر من فى الأرض ضالّون مضلّون . وإذا كان المصطفى ﷺ يحذّره ربّه جلّ وعلا من أن يطيع أولئك الضّالّين عن سبيل الله تعالى لأنّهم ما يتّبعون إلاّ الظّنّ الّذى لا يغنى من الحقّ شيئًا ولأنّهم يكذبون ويفترون على الله تعالى الكذب فمن باب أولى أن ينسحب التّحذير على غيره ﷺ . ومن الّذى يهدى المصطفى ﷺ سواء السّبيل ويحذّره من طاعة الضّالّين ؟ إنّه ربّ المصطفى ﷺ ربّ العالمين . إنّه جلّ وعلا هو وحده أعلم من يضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين الثّابتين على المحجّة البيضاء والطّريق المستقيم .

---

(١) سورة يونس ٣٢ .

[١٢]

« كلوا ممّا ذكر اسم الله عليه ولا تطيعوا شياطين الإنس والجنّ »

الآيـــات (١١٨ ـ ١٢١)

فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾
وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ
لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ
بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾
وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ
سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ
ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ
أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾

تحدّثت آيات القسم السّابق ضمنًا عن إيحاء أعداء النّبيّين من شياطين الإنس والجنّ وإلهام بعضهم بعضًا زخرف القول غرورًا ، كما بيّنت أنّ كلمات الله تعالى المتمثّلة فى القرآن الكريم قد تمّت صدقًا فى الأقوال وعدلاً فى الأحكام . إنّ آيات هذا القسم الأربع تدور حول هذه المعانى . إنّ ربّ العزّة يأمر المؤمنين يأكلوا ممّا ذُكِرَ عليه اسم الله تعالى عند ذبحه ، ويسأل السّياق فى إنكار : وما الّذى يمنعكم أن تأكلوا ممّا ذكر اسم الله تعالى عليه وقد فصّل لكم ربّكم جلّ وعلا ما حرّم عليكم إلاّ ما اضطررتم إلى أكل شيءٍ منه لدفع شبح الموت . إنّ كثيرًا من النّاس ضالّون عن سبيل الله تعالى ويضلّون الآخرين بغير علمٍ بالاعتداء على حدود الله تعالى بإحلال ما حرّم الله تعالى أو تحريم ما أحلّ الله تعالى . ولمّا كان المضطرّ لأكل ما حرّم الله تعالى منهيًّا عن ارتكاب الإثم بالأكل فوق ما يدفع الموت أو بدافع التّلذّذ بما يتناول من طعامٍ ــ ومن شراب ــ وكان الضّابط لكلّ تلك الأمور هو خشية الله تعالى أو ما يسمّى بالتّقوى فإنّ السّياق يمكّن لمثل هذه الضّوابط الإيمانيّة فيأمر المؤمنين بترك ظاهر الإثم وباطنه وفى الوقت ذاته ينذر الظّالمين بعذابٍ أليم .

ولمّا كان الأمر بالأكل ممّا ذُكر اسم الله تعالى عليه يعنى ضمنًا عدم الأكل مما لم يذكر اسم الله تعالى عليه وكان شياطين الإنس قد أوحى إليهم شياطين الجنّ ببعض المغالطات كي يحاجّوا المسلمين بها وذلك بطلبهم من المؤمنين أكل الميتة لأنّ الله تعالى ذبحها والتّعجب من المؤمنين الّذين لا يأكلون ما ذبح الله تعالى ــ حسب زعمهم ــ وأكلهم ممّا ذبحته أيديهم فقد تحدّثت آخر آيات القسم فى هذه المعانى . لقد نهت المؤمنين عن أكل ما لم يذكر اسم الله تعالى عليه كما نهتهم عن طاعة المشركين الّذين يجادلونهم بإيحاء من شياطين الجنّ .

الآيـــة رقـــم (١١٨)

قال تعالى : ﴿ فكلوا ممّا ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين ﴾ .

تأمر الآية الكريمة المسلمين أمر إباحةٍ بأن يأكلوا ممّا ذكر اسم الله تعالى عليه من الذّبائح عند الذّبح إن كانوا مؤمنين بآيات الله تعالى البيّنات الّتى اشتمل عليها القرآن الكريم الصّدق فى الأقوال والعدل فى الأحكام ، الكتاب العزيز الّذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد .

ويُفْهَم من الأمر بالأكل هنا ممّا ذُكِرَ اسم الله تعالى عليه النّهي ضمنًا عن أكل ما لم يذكر اسم الله تعالى عليه ، وهو ما صرّحت به آخر آيات القسم . وهذا يعنى أنّ الآيتين الكريمتين التّاليتين بمثابة التّبيين لأمر الإباحة فى الآية الكريمة بالأكل . فإلى أولى الآيتين الكريمتين .

الآيـــة رقـــم (١١٩)

قال تعالى : ﴿ وما لكم ألاّ تأكلوا ممّا ذُكِر اسم الله عله وقد فَصَّلَ لكم ما حَرَّمَ عليكم إلاّ ما اضطررتم إليه . وإنّ كثيرًا ليضلّون بأهوائهم بغير علم . إنّ ربّك هو أعلم بالمعتدين ﴾ .

تسأل الآية الكريمة فى إنكار : وما يمنعكم أيّها المؤمنون أن تأكلوا ممّا ذُكِر اسم الله تعالى عليه عند ذبحه من بهيمة الأنعام وقد فصّل لكم فى الكتاب العزيز وبيّن لكم ما حرّم عليكم أكله إلاّ ما اضطررتم إليه لدفع الموت عنكم . وإنّ أكثر آي الذّكر الحكيم تفصيلاً هذه الآية الكريمة من سورة المائدة[1] قال تعالى : ﴿ حرّمت

---

(١) الآية ٣ .

عليكم الميتة والدّم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردّية والنّطيحة وما أكل السَّبُع إلاّ ما ذكّيتم وما ذُبِحَ على النُّصُب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق . اليوم يئس الّذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون . اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينًا . فمن اضطرّ فى مخمصةٍ غير متجانفٍ لإثمٍ فإنّ الله غفورٌ رحيم ﴾ .

وإنّ القول : ﴿ وإنّ كثيرًا ليضلّون بأهوائهم بغير علم ﴾ ذو علاقةٍ من ناحيةٍ بقوله عزّ من قائل فى إحدى آيات القسم السّابق خطابًا للمصطفى ﷺ : ﴿ وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلّوك عن سبيل الله . إن يتّبعون إلاّ الظّنّ وإن هم إلاّ يخرصون ﴾ وذو علاقةٍ من ناحيةٍ أخرى بإيحاء الشّياطين إلى أوليائهم زخرف القول وباطل الأحكام على نحو ما قرّرت آخر هذا آيات هذا القسم فى اعتراض المشركين على المؤمنين عدم أكلهم الميتة الّتى ذبحها الله تعالى وأكلهم الميتة الّتى ذبحتها أيديهم !

ومن البيّن أنّنا بصدد اعتداءٍ من أعداء الله تعالى على أحكامه ، لأنّ المؤمنين فى أكلهم وعدم أكلهم إنّما يأتمرون بأمر الله تعالى وينتهون بنهيه . وبذلك يكون من المشركين اعتداءٌ على المؤمنين بعد اعتدائهم على أحكام الله تعالى . ويكون من الآية الكريمة فى القول : ﴿ إنّ ربّك هو أعلم بالمعتدين ﴾ تهديدٌ لأولئك المعتدين من ناحية ، وتثبيتٌ لفؤاد المصطفى ﷺ ولكل فردٍ من أفراد الأمّة الإسلاميّة بعد ذلك من ناحيةٍ أخرى . إنّنا بصدد القول خطابًا للمصطفى ﷺ أساسًا : ﴿ ربّك ﴾ وقد تبيّنّا أنّه جاء فى القسم السّابق مرّاتٍ عدّة للغاية ذاتها .

ولمّا كانت طاعة الله تعالى بشأن أكل ما ذكر اسم الله تعالى عليه تعنى طاعته جلّ وعلا فيما وراء ذلك ، ولمّا كانت المعصية تعنى الشّىء ذاته كان فى الآية الكريمة التّالية تعميق هذا المعنى فإلى .

الآيـــة رقـــم (١٢٠)

قال تعالى : ﴿ وذروا ظاهر الإثم وباطنه . إنّ الّذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون ﴾ .

تأمر الآية الكريمة الّذين آمنوا بالله تعالى ربًّا وبالرّسول العظيم إمامًا وبالقرآن الكريم منهجًا أن يتركوا ظاهر الإثم وباطنه ، علانية الذّنب وسرّه . إنّ المؤمن التّقيّ يعلم أنّ الله سبحانه وتعالى معه أينما كان وبالتّالى هو يخشى الله تعالى فى السّرّ والعلن معًا . أمّا الّذين يكسبون الإثم ويأتون السّيّئات فإنّ الله سبحانه وتعالى سيجازيهم بما كانوا يقترفون من موبقات ويرتكبون من حماقات . ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تستعمل الجملة الّتى تفيد الكسب والرّبح أساسًا فى حقّ السّيّئات من قبيل الاستهزاء بالظّالمين الّذين أعمى الله تعالى بصائرهم فخدعهم عاجل اللّذّة وظاهر الكسب عن آجل الألم وباطن الخسارة . ويلاحظ كذلك أنّ الآية الكريمة تستعمل جملة ﴿ يقترفون ﴾ الّتى تدلّ على حقيقة الآثام الّتى ارتكبها الظّالمون وبذلك يكون الجزاء بمعنى العقاب خاصّةً وأنّ لفظة الإثم قد حدّدت معنى الكسب ومعنى الجزاء من ناحيةٍ ورشّحت لمجيء جملة ﴿ يقترفون ﴾ الّتى يكثر استعمالها مع السّيّئات وذلك فى القول : ﴿ إنّ الّذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون ﴾ من ناحيةٍ أخرى .

وإذا كانت الآية الكريمة الأولى فى القسم أمرت أمر إباحةٍ بالأكل ، وفى ذلك نهيٌ ضمنيٌّ عن أكل الطّعام المقابل فى الصّفة فإنّ هذا النّهي الضّمنيّ صرّحت به آخر آيات القسم فإلى .

الآيـــة رقـــم (١٢١)

قال تعالى : ﴿ ولا تأكلوا ممّا لم يُذْكَرِ اسمُ الله عليه وإنّه لفسق . وإنّ الشّياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم . وإن أطعتموهم إنّكم لمشركون ﴾ .

تصف الآية الكريم ما لم يذكر اسم الله تعالى عليه عند ذبحه بأنّه فسق ، بمعنى أنّه خروج عن الطّاعة[١] وخروجٌ عمّا يحلّ[٢] ودخول فى المعصية وفيما يحرم .

وقد أوحى شياطين الجنّ إلى أوليائهم من شياطين الإنس[٣] كي يجادلوا المؤمنين بالباطل وكي يطرحوا عليهم هذه الشّبهة الإبليسيّة بأن يقولوا لهم : أمّا ما قتلتم بأيديكم فتأكلونه ، وأمّا ما قتل الله فلا تأكلونه يعنى الميتة[٤] وكأنّ المشركين يجهلون أنّ المؤمنين إنّما يأكلون من الأنعام ما ذُكِرَ عليه اسم الله تعالى عند ذبحه بأمر الله تعالى ولا يأكلون ما لم يذكر اسم الله تعالى عليه عند ذبحه لأنّه فسقٌ بأمر الله تعالى كذلك . وما معنى طاعة المشركين هنا ؟ معصية الله تعالى وطاعة شياطين الجنّ وشياطين الإنس الّذين يوحى بعضهم إلى بعضٍ زخرف القول غرورًا . وما معنى طاعة الشّيطان الرّجيم وأكل ما نهى الله تعالى عنه ؟ التّورّط فى الشّرك وهو الذّنب الّذى لا يغفره الله تعالى . إنّ الآية الكريمة تحذّر المؤمنين من التّورّط فى الشّرك بعصيان الله تعالى وطاعة شياطين الجنّ والإنس .

ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تجعل المشركين أولياء الشّياطين ، وقد جاء فى سورة محمّد[٥] عليه الصّلاة والسّلام القول : ﴿ ذلك بأنّ الله مولى الّذين آمنوا وأنّ الكافرين لا مولى لهم ﴾ .

وبشأن الذّبيحة الّتى لم يذكر اسم الله تعالى عليها يرى ابن كثير[٦] رحمه الله تعالى رحمةً واسعةً أنّ الأئمّة رحمهم الله تعالى قد اختلفوا فى هذه المسألة على ثلاثة أقوال .

---

(١) تفسير ابن عطيّة ٥/٣٣٥ .
(٢) الجلالين .
(٣) انظر تفسير الطّبريّ ٨/١٣ .
(٤) تفسير الطّبريّ ٨/١٤ .
(٥) الآية ١١ .
(٦) انظر تفسير ابن كثير ٢/١٦٩ و١٧٠ .

المذهب الأوّل : لا تحلّ هذه الذّبيحة بهذه الصّفة . وسواءٌ متروك التّسمية عمدًا أو سهوا .

المذهب الثّانى : أنّه لا يُشْتَرَط التّسمية بل هي مستحبّة . فإنّ تركها عمدًا أو نسيانًا لا يضرّ . وهذا مذهب الإمام الشّافعيّ رحمه الله وجميع أصحابه ، وروايةٌ عن الإمام أحمد نقلها عنه حنبل . وهو روايةٌ عن الإمام مالك . ونصّ على ذلك أشهب ابن عبد العزيز من أصحابه . وحكي عن ابن عبّاس وأبي هريرة وعطاء بن أبى رباح. والله أعلم .

المذهب الثّالث : إن ترك البسملة على الذّبيحة نسيانًا لم يضرّ . وإن تركها عمدًا لم تحلّ . هذا هو المشهور من مذهب الإمام مالك وأحمد بن حنبل وبه يقول أبو حنيفة وأصحابه وإسحاق بن راهويه . وهو محكيّ عن عليّ وابن عبّاس وسعيد بن المسيّب وعطاء وطاوس والحسن البصريّ وأبى مالك وعبد الرّحمن بن أبى ليلى وجعفر بن محمّد وربيعة بن أبى عبد الرّحمن[1] .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢ / ١٦٩ و١٧٠ .

[١٣]

« الإيمان حياةٌ والكفر موتٌ ومكر الكافرين بأنفسهم وثواب من شرح الله صدره للإسلام فأسلم »

الآيـــات (١٢٢ ـ ١٢٧)

أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى
ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ
زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا
فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا
يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ
ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ
ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟
صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾
فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ
أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ
فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا
ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ
وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾

تدور آيات القسم حول من أحياه الله تعالى بالإيمان ومن مات بالكفر . إنّ مَثَلَ من كان ميتًا بالكفر فأحياه الله تعالى بالإيمان وجعل له نورًا يمشى به فى النّاس ليس كمثل من ظلّ ميتًا بالكفر ويعيش فى ظلماتٍ متنوّعةٍ لا يخرج منها إلى أن يموت حسًّا بالفعل . ومن البيّن تمشّى الحديث عن الّذى كان ميتًا فحيي بالإيمان وعن الّذى ظلّ ميتًا حتّى مات فعلاً مع طبيعة الفترة المكّيّة المبكّرة من فجر الدّعوة الإسلاميّة . إنّ هؤلاء الكافرين زيّن الله تعالى لهم ما كانوا يعملون ، وهم كغيرهم من أكابر مجرمى القرى الّتى بعث الله تعالى فيها نبيًّا لا يكفّون عن المكر ولكنّه يحيق بهم ويرتدّ إليهم . وإنّ كفّار مكّة الّذين يعتبرون الرّسالة مجالاً للتّنافس يصرّحون بأنّهم لن يؤمنوا حتّى يؤتيهم الله تعالى من الرّسالة والوحي والمعجزات مثل ما أعطى النّبيّين والمرسلين السّابقين . ويجهلون أنّ الله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته وأنّ الكافرين سيصيبهم هوانٌ فى الأولى وذلّةٌ وعذابٌ أليمٌ فى الآخرة بسبب مكرهم . وإنّ أولئك الكافرين المنصرفين عن الهدى يزيدهم الله تعالى انصرافًا بأن يجعل صدر الواحد منهم حينما يُدْعَى إلى الإسلام ﴿ ضيّقًا حرجًا كأنّما يصّعّد فى السّماء ﴾ أمّا الّذى يريد الله تعالى هدايته بسبب سلامة قلبه فإنّ الله تعالى يشرح صدره للإسلام ، ويهديه إلى الصّراط المستقيم ، وينير له الطّريق بواسطة الوحي متمثّلا فى القرآن الكريم وسنّة المصطفى ﷺ . إنّ المتّقين يدخلهم جلّ وعلا الجنّة داره دار السّلام وهو الّذى يجزل لهم المثوبة بما كانوا يعملون من صالحات .